سماءٌ تمطرُ خوفًا

بيانات رواية سماء تمطر خوفًا:

- ❖ الرواية: سماء تُمطِر خوفًا
- ❖ الكاتب: غسان خالد
- ❖ النوع: رواية
- ❖ مراجعة وتحرير: رياض حَمّادي
- ❖ تدقيق لغوي: محمد عبداللطيف
- ❖ تصميم غلاف: أمنية محمد
- ❖ إخراج داخلي: سليل الفراعنة
- ❖ سنة الإصدار: ٢٠٢٤
- ❖ الناشر: مؤسسة حزاوي للتنمية الثقافية
- ❖ رقم الإيداع في الهيئة العامة للكتاب، صـــنعاء: ٣٣٧ لسنة ٢٠٢٤

هذا الكتاب متذيل أدبي ولا يُعبر بالضـــرورة عن رأي كاتبـه ولا رأي بنك اليمن والكويت ولا مؤسسة حزاوي للتنمية الثقافية ولا رأي الجائزة وإدارتها.

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف. يُسـمح الاقتباس في حدود الدراسـات والمقالات مع ضرورة الإحالة إلى المصدر، شاملًا: اسم الكتاب واسم كاتبه وناشره "مؤسسة حزاوي للتنمية الثقافية"، وما عدا ذلك يُرجع للمؤلف لأخذ إذن خطي منه لأي اسـتعمالات أخرى.

YKB
بنك اليمن و الكويت يُلهم المستقبل
YKB Inspiring the future
yk-bank.com

حزاوي
HAZAWI
جائزة السرد اليمني

(روايـــــــــة)

سماءٌ تُمطرُ خوفًا

تأليف

غسان خالد

YKB
بنك اليمن و الكويت يلهم المستقبل
YKB Inspiring the futur
yk-bank.com

حزاوي
HAZAWI
جائزة السرد اليمني

١

مضت أكثر من عشر سنوات على وصولي إلى القرية. بحر من الخضرة يموج في الوديان ويتسلق الجبل إلى قمته. أتيح لي العودة إلى مدينة عدن لرؤية البحر مع زملائي الطلاب خريجي الثانوية العامة.. وقد بهتت ألوان الحياة وغطى غبار السماء على الأبواب والنوافذ وشحبت الأشجار الخضراء. كنت أتوق للسفر ورؤية منزلنا من الخارج. هل كنت حقًا على يقين من رؤيته ومصافحة البحر؟ آخر مرة رأيت فيها البحر من زجاج نافذة السيارة التي حملتنا إلى القرية وأنا في السابعة من عمري. كان يبتعد عني ويختفي وراء المنازل. نمت خلال الطريق واستفقت على تسونامي حياة حرب صيف ٩٤.

اتخذت مقعدًا على الحافلة يسمح لي بالنظر من خلال النافذة. في تلك اللحظة تذكرت أقراني الذين عرفوا البحر قبل بضع سنوات، في رحلات مدرسية يقول عنها جدي إنها مشبوهة: "من ذا الذي يقطع مسافة طويلة بين مدينتين من أجل رغبة رؤية البحر لأطفال يسكنون أعالي الجبال! سماؤنا الزرقاء هي بحرنا، هل ترغب بزيارة السماء؟!" هكذا حدثني في محاولة إقناعي لثني إصراري عن الذهاب معهم.

في الطريق إلى عدن كانت الحافلة تطوي الشوارع الإسفلتية، وتركل الأشياء الجانبية إلى الخلف. كنت مضطربًا في حركاتي ونظراتي

وإيماءاتي. أريد معرفة المدينة ورؤية منزلنا الذي ولدت فيه، كأن تصوري المسبق لا يريد أن يغادر ذاكرتي ليرى تفاصيل الأشياء التي كونتها في ذهني مجسدةً في نسختها الحقيقية على أرض الواقع. لكن الخيال المجرد يجعل فهمنا للأشياء غاية في الإرباك. كانت الحكايات التي أسمعها من جدي وعمي صقراوي عن عدن زمان أشبه بيوتيوبيا الأحلام. يعتقدان بحنين تام أن هذه المدينة التي كانت تسمى "درة التاج البريطاني" ربما منحتهما حينئذٍ الكثير من الدفء ووضعتهما في قلب حركة الزمن، وعرَّفتهما على أشياء لم يألفاها من قبل، من منتجات الثورة الصناعية ووسائل الرفاهية المرئية والمسموعة.

بعد تجاوزنا نقاط تفتيش وزحمة سيارات، أحسست بالراحة حين اعتدلت الحافلة على مسار مستقيم تقريبًا. يرتفع ضجيج الأصوات المتداخلة لأقراني، بينما آثرت الصمت الطويل والتفكير فيما يعتمل داخلي. لم يقطع صمتي هذا سوى مرافق الرحلة الذي منع سماع الأغاني على متن الحافلة.

لم تمنعني تلك التفاصيل من تذكر التاريخ العائلي الخاص بالسفر عبر دروب الطريق، وتَخَيُّل جدي وجد زميلتي راية صقراوي في شبابهما وهما يقودان جِمالهما عبر صحراء محافظة لحج قاصدين هذه المدينة، ويعودان بالبضائع الجديدة والغريبة قبل أن يغتربا خلف البحار. هل كان يؤرقهما

عدم وجود ظل للراحة؟ والمكان فضاء مفتوح على مشقة الأسفار وخطوبها. لكن لهفتهما للمدينة وشوقهما للبحر هو ما سينسيهما التعب. باغتتني الدهشة بغرابة، ولم أحسم الفكرة حسمًا قاطعًا. قفز في ذهني سُلوك جنود بريطانيا العظمى الجاف معهما على مداخل محمية عدن.

حين وصلت الحافلة إلى مدينة عدن كان الهواء يشتعل بالحرارة، قيظ شديد يحرق المكان. المباني والأماكن التي مررنا بها تبدو في نحيب مستمر، يقابلنا تجهم الناس في الشوارع وبؤسهم. في الوقت الذي توقفت فيها الحافلة في موقف عام، لم يكن هناك بحر، ولم يكن الوقت الذي قطعناه في الشوارع هينًا، لكننا لم نصطدم بالمياه، ولم يصل إلى مسامعنا هدير الأمواج، كان يأتي خفيفًا ومثقلًا عبر خيط واهن ممتد من طفولتي. ها هي الصورة النمطية في خيالي تتفكك. جاءت قوات من الشرطة لإخلاء الشوارع، فاضطر سائق الحافلة إلى اتخَاذ قرار مفاجئ بالعودة. قُتلت الأفكار في رأسي تحت خراب كبير أحدثه الكبار، لم أجد جنة عدن، ولا النساء الجميلات. كنت أتخيَّل رائحة عدن كرائحة البخور الذي ينبعث من بيت عم صقراوي.

في طريق العودة كنت أنظر شزرًا نحو وجه مشرف الرحلة، الذي بادرني بكلمات: "يبدو أن هناك شخصية مهمة سوف تتجول في المدينة." كان المشرف رجلًا غريبًا، حين يتحدث تتصاعد فقاعات من طرفي فمه. أشار نحوي قائلًا: "سنعود مرة أخرى".

وصـلنا إلى مدينة تعز قُرب منتصـف الليل بعد جهد جراء تعطل الحافلة مرات عدة في طريق العودة. ذهب الجميع إلى منازل أصـدقائهم وأقاربهم، بعد أن أوصلوني إلى منزل صديق لي هَجَرت عائلته القرية مبكرًا.

جذبني نحوه مغلقًا الباب، أفسَـح لي طريق الدخول، وعلى ضـوء الشـموع لمحت في الغرفة أصدقاءه متفرقين على المتكآت. وقفوا جميعًا لتحيتي قبل أن أجلس إلى جوارهم. تحول إرهاقي وتعبي إلى طاقة حين لمسـت الحب في عيونهم، شـغفين بما سـأكشـفه لهم عن عدن، لكن طاقتي الضـعيفة أربكتهم. لا تبدو الخيبة على وجهي بقدر بيان انطباعي الجديد. لم أتمكن من النوم، وأنا أخطط للعودة صـباحًا إلى قريتي. حاولت أن أوقف حديثهم لأنام، لكن دون جدوى. ليس من السهل إسكات أحاديث الطفولة المشتركة التي كنا نتحدث بها في المدرسة.

في ساعات الصباح الأولى وبينما أنا أحاول النوم، كان المؤذن ينادي لصلاة الفجر، من جوامع عدة تُطَوَقَ الحي الصـغير. كل جامع يضـع ما لا يقل عن أربع مكبرات صـوتية مصـوبة نحو المكان ذاته. أكثر من سـتة عشـر مكبر صـوت مصـوب إلى أذني في توقيت مختلف يبدو مزاجيًا. لم أعرف ما يجب عليّ فعله. أصـوات فتح الأبواب الحديدية وإغلاقها مسـتمر، وأنا أتقلب في الظلام يمنة ويسـرة على نار الضـجر. ضـاقت بنا القرى وتضـيق بنا المدن. عادت الكهرباء مرة أخرى بعد اِنْطِفاء دام أكثر من سبع ساعات، لكن المياه لم تأتِ. أغلقت النور السـاطع، وانتظرت قُدُوم ضـوء النهار ودبيب حركة

السيارات في الشوارع. أسمع أصوات قرع نعال تقترب متجهة نحو الشارع الرئيسي، خمنت أنهم عمال البناء وبائعو القات والخضرة والفواكه.

حين نَزَلت إلى رصيف الشارع كان الجو ضبابيًا. وجبل صبر الذي يحمي المدينة كان لا يّزال نائمًا، يتمتع بدفء تحت قطعة ضخمة من الغيّم الأبيض، لا شيء يستطيع إيقاظه سوّى أشعة الشمس التي تبدو كسلة. قضيت أكثر من ساعة في انْتِظار وسيلة مواصلات تقلني إلى موقف حافلات القرية، غالبت نومي حتى أتى أول باص، اتخذت المقعد بجوار السائق. كنت فرحًا، سوف أصل سريعًا، سأفاجئ جدتي وهي أمام موقد تنور الحطب، ستعد لي فطيرة ذرة حارة يصعد منها البخار، وستضع لي حليبًا رائبًا في آنية من المعدن.

كان الباص الصغير يعبر الشوارع الخالية سوى من اصطفاف شباب من الجنسين في بعض الأماكن في انتظار الحافلات التي ستذهب إلى الجامعة. يبدو الأمر واضحًا من هيئاتهم. قريبًا سأقف إلى جوارهم. نسيت ذلك الأمر وأنا أنظر إلى بائعات القات والفواكه من بنات الجبل، وهن يصعدن إلى جِواري. رحت أدندن بصوت خفيض كلمات أغنية أيوب طارش عبسي:

"طاب البَلَس طاب واعذارى ❊ طاب.. هيا صبّحونا بلسْ
والفرسك أخضر وحالي ❊ واصبر لا ما تسبب ضرَس
ما أحلى بنات الجبل حينما ❊ يطوفين المدينة بالثياب الدَّمَس

خدود مثل الورد ضـوء الفجر ❊ أرواها وأعطاها المشـاقر حرس
محوطات الوجوه البيض بالكاذي ❊ المُسـقَّى في بـرود الـغـلـس
يسقيك ما أحلى ورودك وغرسك ❊ وا صـبر، يرحم أبوه من غَرَس"

تضـاعف خجلي حين أَدار السـائق تلك الأغنية: كيف نتغزل بهن في وجودهن! ليس من العادة استفتاح يومهم بالأغاني. ردت إحدى بنات الجبل: من يريد الاستفتاح فليستفتح بصلاة الفجر.

كان موقف الحافلات الذي ينقل الركاب نحو القرية خاويًا إلا من حافلة شاجع، ومخلفات الباعة على الأرض وعشوائية المكان التي تجلب الضيق. نظرت من خلال الزجاج، كان نائمًا في الداخل. شعرت بالملل الذي تلحقه أشعة شروق شمس خفيفة على مكان ميت. قرعت بأظافري على الزجاج. فتح عينيه بفزع وصـوب نحوي عصـى غليظة من مكانه. قلت: هذا أنا يا شـاجع. تراجع فزعه، فتح الباب وعاد للنوم. صعدت إلى الكرسي جوار السائق. كانت رائحة الحافلة نتنة. صار يشرب من الخمور الرديئة المصنعة في بعض القرى والتي تُرسـل معه إلى الزبائن في إدارة أمن المدينة، وجنود المعسكرات ومقاهي الباب الكبير الشهيرة.

عُرف عن شـاجع تخصـصـه في اصـطياد زبائن آخر الليل، على الرغم من المخاطر والقصـص التي تحدث له ويرويها لكل من يركب حافلته. ربما يفعل ذلك خشـية من أن ينافسـه أحد على ركاب الأوقات المتأخرة، فقد

كانوا يكرمونه كثيرًا، وبذلك يستطيع تغطية نفقات يومه الشرهة وما يفيض عن ذلك يتركها لوالدته التي يحبها ويخافها كثيرًا. لكن في تلك الليلة لم يصطد فيها سوى نحسه. كانت الحوادث قليلة، لم تلد امرأة في المدينة حتى يذهب لإحضار والدتها من القرية، ولم يمت أحد في القرية من آباء الرجال الساكنين المدن، ولم يكن هناك شباب في سنة أولى زواج عائدين من مراكز أعمالهم في المدن المختلفة التي يصلون منها في وقت متأخر، حتى باعة أغصان القات نفدت كل بضائعهم قبل غُروب الشمس، وأغلقت المتاجر والمطاعم في وقت مبكر. كانت ليلة نحس لن ينساها، حتى أنه لم يصل أحد من المغتربين في الخليج في ساعة متأخرة من الليل، ويريد الوصول إلى زوجته سريعًا تحت جنح الظلام.

لم أكن أتوقع أنه سيطول انتظار انطِلاق الحافلة حتى الساعة الثانية عشرة ظهرًا. مرت ساعة كاملة لم يستيقظ فيها شاجع، ولم يأتِ الركاب. ذهبت إلى كشك الصحف في قلب سوق القات ولم أجد سوى صحيفة "الجمهورية". كانت الصفحة الأولى تتحدث عن اجتماع مجلس الوزراء ليلة أمس برئاسة رئيس الجمهورية في مدينة عدن ومناقشة مصفوفة من قضايا الدولة لحلها، وانتهى خبر الاجتماع بتوجيه الجهات ذات العلاقة لحلها. وخبر تجول الرئيس في شوارع مدينة عدن ومقابلته المواطنين وتلمس قضاياهم، وفي الصفحات التي تليها تتمة للأخبار المقتضبة، أهمها تعيين عدد من المحافظين ومشروع الاهتمام بأرخبيل سقطرى، وصور من

فعاليات صنعاء عاصمة الثقافة العربية.. وإرسال برقيات التهاني والتعازي، وأخبار تعيين سفراء في عدد من الدول الشقيقة والصديقة، ومن ثم تقارير تتحدث عن منجزات البلاد، وتقرير مستفيض عن خطة خمسية قادمة. والتحضير المبكر لاحتفالات الذكرى الخامسة عشر لقيام الوحدة اليمنية بين الشمال والجنوب. تضاعف الملل أكثر مما كنت أتوقع، فرميتها جانبًا، في الوقت الذي كان فيه باعة الخضار والفواكه في السوق قد بدأوا بترتيب البضاعة الجديدة على صناديق مرتفعة أسفل شمسيات عالية تبدو كحقل من الفطر السام.

لم يكن لدي ما أفعله سوى مراقبة المجانين الذين بدأوا بالتحرك في الشارع بملابس متسخة وصدور عارية. كان باعتقادي الراسخ أن كل مجنون في الشارع هو مُخبر لدى السجن الكبير الذي غاب فيه والدي. هناك فارق بين المرضى النفسيين الكُثر، بسبب الفقر، وبين المجانين. رحت أتأمل أحدهم يجلس القرفصاء في ركن مهمل من موقف الحافلات، كان الأكثر وضوحًا، شعره الأبيض والأسود معجون كرقائق نحاس التنظيف في المطابخ، وتلك حيلة ينفذها بصب مشروب غازي عليه، ويغطي جسده بخليط من الفحم وزيت السيارات المستهلك، ومع إضافة قليل من الشرود والمشاعر المسحوقة يبدو مجنونًا حقيقيًا. كنت أفكر كيف يرسل له محافظ المدينة الطعام النظيف، لا بد أنه يرسل أحدًا من حراسه لوضعه في براميل الزبالة.

"حسان الخالد من أين أتيت!"

فاجأني شـاجع من الخلف وهو يمسـح وجهه، وأضـاف: من عدن، صـح؟ قلت: نعم. كأنه لم يعجبه الأمر. نفض الغطاء فوق جسـده، وترك الهواء يدخل الحافلة، كنس مخلفات طقس ليلته إلى الخارج، ثم دعاني للفطور. أتمنى أن أصاب بالجنون ككل المجانين في الشارع- أعني المخبرين- حتى لا أحس بالذباب الذي يحوم علينا، والرائحة المؤذية التي تأتي من مخلفات المطاعم وبقايا الفواكه الفاسـدة المرمية على الرصـيف. لو تم منح هذه المخلفات إلى المتسـولين والمتشـردين قبل فسـادها لما رأينا جائعًا، ولن يكون هناك روائح مزعجة للآخرين، ولتفادينا الكثير من الأمراض. هبت رياح حركت مخلفات السـوق والشـارع على وجوهنا، وحين انحسـرت كانت أقراص الخبز قد طارت في الفضاء، وصحن الفول قد ابتعد إلى الجهة الأخرى. لم نتعرف على أنفسـنا أمام مرآة مغسـلة المطعم، ونحن نغسـل الأوساخ التي علقت على وجوهنا.

الحياة قاسـية في هذه البلاد، قال شـاجع وهو يجلس خلف المقود وأنا إلى جواره. أخرج نبيذًا قرويًا رديئًا في قنينة عصـائر، دلق منها في فمه. ثم راح يحدثني عن حياته. كان يعمل في السـعودية. ولا أعرف إن كان ذلك صحيحًا. بعد قليل سوف يقول كلاماً مكررًا: "عشت ملكا.. عشت الحياة بطولها وعرضـها.. تزوجت حتى من الجنيات.. لم أحرم نفسـي شـيئًا. بعد حرب الخليج بنيت لي غرفتين مع ملحقاتهما، واشـتريت سـيارة صـالون قديمة واسـتبدلتها كثيرًا حتى وصـلت إلى هذه الحافلة. الخبر الأسـوأ أنني

انفصلت عن زوجتي الجنية، لم أستطع الاندماج في حياتهم في جو من النظام والسعادة، تعودنا على الحروب والأزمات وتعودوا هم على السلم والحفلات، كان يقلقني أن تمر أشهر كثيرة بلا منغصات، كنت أعيش في كهف من المعاناة داخلي حتى أشعر باحتراق روحي. تركت لها ابنتي وغادرت. لن أتزوج من بشرية. لست مستعدًا أن أفقد حُريتي في الحياة، وأمتنع عن الشراب.. لا أشرب لأني مدمن، أشرب حتى لا أرى البؤس. إذا صلحت الأحوال لن أشرب."

دبت الحركة في المكان من حولنا، وصلّت الحافلات والسيارات القادمة من القُرى، ينزل جوارنا طلاب مسرعين إلى جامعاتهم، متخاصمون إلى المحاكم، مرضى يقصدون المستشفيات، باعة القات يحملون صرائر ضخمة على ظهورهم ويجرون بها إلى مصطباتهم، تُجار المواشي يلقون الأعلاف إلى الحضائر.

وصل منظم الفرزة، سجَّل شاجع على رأس قائمة الحافلات المغادرة أولًا. ارتفعت هتافات الباعة، ومشاغبات المتسولات وهن يقرعن زجاج النوافذ ويرفعن تقارير طبية في الوجوه، وآخرون افترشوا الرصيف يمدون جروحهم المخيفة. معظمهم ليسوا محتاجين، لكن هذا ليس صحيحًا تمامًا، هذه المهنة لن يمتهنها أحد لم يثقب الزمان كرامته.

دلق شاجع جرعات أخرى من النبيذ، وتجشأ على المقود وهو يسمع تحية العلم والنشيد الوطني من المدرسة المجاورة: "أقسم إن كنت تلميذًا في هذا

الزمن لن أدخل المدرسة لأتعلم الجهل، سأقطع يدي إن سجلت كلامهم وسأقطع حنجرتي إن هتفت بالروح والدم للوطن. الوطن يريدنا أن نحيا لأجله، لا أن نموت في سبيل اللصوص والفاسدين." توقف فجأ وأشار إلى معلم يمر جوار الحافلة بجسد يمكن أن يحمله الريح، ووجهه كمنقار صقر. قال شاجع: "هذا الشخص معلم تاريخ، كان معيدًا في الجامعة، درسنا مقرر الحضارة اليمنية القديمة، ولأنه لا يمتلك حظوة وليس محسوبًا سوى على اجتهاده، سرقوا حلمه لشخص آخر. هذا هو الأفضل بين المعلمين، كل يوم أراقبهم من هذا المقعد، من يبدو عاقلًا فيهم ومرتبًا فهو بالضبط معلم غير نزيه، متفرغ لعمل آخر على حساب تدريس التلاميذ، أما المدراء فتعينهم الدولة.. اترك لي حالي ولا تستمع إليّ، هذه الحافلة هي وطني الذي لا أرغب في مغادرته، أخرج مضطرًا لأخذ حاجاتي الضرورية، وفي حدود تعاملي مع الناس."

استغرق الأمر ثلاث ساعات من هذيان شاجع ونومه المتقطع ونزوله وصعوده وصيانة إطارات الحافلة، حتى أتى أول راكب، شاب قادم من السعودية، يستحث السائق على المغادرة سريعًا. قال شاجع: هذه النوعية من الزبائن لا تدفع، وصل ليلًا ونام في ذلك المبيت القذر.

وصل سالم المُسلَّم بسيارة حديثة إلى جواره امرأة كبيرة. دار حول السيارة، ساعدها بالنزول على عكازها حتى صعدت الحافلة. عاد بحقيبة ملابسها، رماها في الأعلى، وعاد ثانية وبيده كمية كبيرة من الفواكه، وضعها إلى

جوارها. منح شـاجع أجرة شـخصـين، وشـرط عليه أنّ لا يسـمح للرجال بالجلوس إلى جوارها. ثم غادر سـريعًا، رفرف خلفه ثوبه ناصـع البياض، لمعت لحيته الحمراء في الشمس، وبرزت أسنانه المتخالفة شديدة البياض، وبعد أن اختفى بسـيارته الحديثة نزعت المرأة خمارها، وأبعدت أكياس الفواكه بعكازها، قالت: وسـخ ابن وسـخ، كلوا يا عيالي وفرقوا على المساكين. ابتاعت قبضة رياحين وزهور نرجس لنفسها من فتيات جوالات، وضعتها على جانب شعرها، ومضت تُلالي بصوتها الشجي.

صـعد رجل متعب، بقامة قصـيرة ناحلة، رأسـه يرفض النظر إلى الأعلى، ويقود طفل في الثامنة من العمر، شعره مرتب وملابسه جميلة، أنيق حذائه، متورد خده، لا يبدو أنه من هذه القرى. جلسا وأحدهما ممسك بيد الآخر.

توارد الركاب، صعد طلاب الجامعات، نساء عائدات من المستشفيات، عمال وموظفون، ومجموعة شباب بائسين لا يستطيعون دفع الأجرة. ثم جلس بائع قات في المكان الشاغر الأخير.

صَعَدَ شاجع صندوق البضائع على سقف الحافلة. "غطى المطر جبل صبر"، قال وهو يتناول من يدي أغراض الركاب. ثم غطى عليهم بغطاء أزرق، وشده بحبال من جوانبه. بدأت قطرات المطر تتناثر بشكل متسارع. استعجله الركاب يريدونه أن يتجاوز مجرى الماء خارج المدينة قبل أن يقطعه تدفق السيول. تحركت الحافلة، لكن شاجع أشعل احتجاجهم حينما

توقف عند محطة البنزين، ملأ خزان الحافلة وصـفائح أخرى للمولدات الكهربائية لأهل القرى.

مضت الحافلة ببطء على طريق ترابي غير مستوٍ. في اللحظة التي وصل فيها أعلى المجرى بدأ السيل بالتدفق، صاح الجميع عتبًا عليه، وغضبًا منه. رد عليهم بلباقة: عليكم أن تحمدوا الله أنني تريثت ولم أتهور، كان السـيل سيجرفنا إلى الوادي.. الحمد لله على سلامتكم. اعترضوا مرة أخرى بتبرم ولؤم. حاول تشتيتهم عنه وإدخالهم في حجاج شائع: "غضبكم هذا يستحقه المسؤولين الذين لم يكلفوا أنفسهم بناء جسر صغير لا يتجاوز طوله مائة متر، وأنتم تصـفقون وتهتفون لهم في المهرجانات وتصـوتون لهم في الانتخابات ثم تخرجون غضبكم على شاجع المجنون." قال أحد الركاب: "تلقون اللوم على الدولة، ولا أحد يتحدث عن الأحزاب، لو كان السـائق حريصًا على بلع لقمته بالحلال كان اهتم وقاد سريعًا." يتضح من هيئته أنه مسـؤول جديد في مبنى المحافظة. صـمت الجميع ولم يرد عليه، لم يتبينوا بعد انتماءه الحقيقي، وحين قلَّب بصـره نحوهم مرة أخرى، هز الجميع رؤوسـهم. قالت الحجة التي أتت مع سـالم: اهدأوا يا أبنائي، في التأني السلامة وفي العجلة الندامة، أنتم الآن جوعى، تناولوا من الفواكه.

ساد صمت متقطع. قطرات المطر تضرب نوافذ الحافلة، وماسح الزجاج الأمامي ينظف المياه دون كلل. تظهر أمامنا خيام المهمشـين على سـفح الجرف الذي يمر منه السـيل على يمين ويسـار الطريق. انقبض قلبي وأنا

أرفع منسوب المياه بخيالي إلى مستوى الخيام. أين سيذهب بهم؟ لن يستطيعوا إنقاذ أنفسهم، وإن نجا منهم أحد، إلى أين سيذهب بعد الكارثة وهو لم يجد قبلها سوى جرف خطر للعيش عليه. في تلك اللحظة ارتفع صوت بائع القات من بين الصمت وهو يحشوا فمه بالأغصان. وجهه المربع متناسق مع شاربه الكث وكلماته السريعة. وجَّه حديثه للرجل الذي تحدث قبل قليل: ما قلت يا أخي، لا نلوم الدولة، من نلوم؟ نلوم أنفسنا! متى ستصلح البلاد ونكون مثل بلدان خلق الله؟ خلاص يعني.. تريدون تكميم أفواهنا! وشرع يتحدث عن اهتمام الدول الأخرى بمواطنيها. في السبعينيات كنا دولة وكان جيراننا أقل منا، كيف أصبحوا اليوم وكيف صرنا!

أخرج من جيبه صور قديمة شُقت من مجلات، وأشار إلى الجسور التي تبنيها البلدان لرفاهية مواطنيها. قال: نحن في القرن الواحد والعشرين ونبعد بضع عشرة كيلومترات عن المدينة ولم نعرف كهرباء الحكومة، ولا مشروع مياهها ولا طرقها المعبدة.

أخرج من جيبه جريدة مطوية، وأشار فيها إلى مقالة كتبها في صفحة القراء، تحدث فيها عن الكهرباء، كان لديه حلم أن يكون صحفيًا، لكن هذه البلاد تقدم العميان والمخادعين إلى الواجهة. يكتب مقالاته في المساء، ويوصلها إلى مبنى الصحيفة بعد انتهائه من بيع القات.

في الحافلة رجل آخر، تبين أنه معلم، نقله مدير مركز التربية في المحافظة للتدريس في مديرية ريفية بعيدة بسبب انتمائه العقائدي، يقضي مسافة

الطريق سيرًا على الأقدام والحافلات والدواب. كان منهكًا فلم يتحدث أو ربما أراد منع لسانه من الكلام الذي قذف به إلى المكان البعيد والوعر.

أدار شاجع راديو الحافلة على محطة المدينة، كانت وشوشة المذياع أعلى من صوت المذيع. اعترض أحد العمال على ذلك: الصوت يوشوش داخل رأسي. أدار أغنية لفنان المدينة الشهير. اعترض آخر على ذلك، لأن ذوقه لا يتناسب مع أغاني هذا الفنان. اعترض شخص على كلامهم، وحسم الأمر بإغلاق صوت المغني والدعاء لله لأنها ساعة إجابة، بحسب قوله. حوَّل المحطة إلى إذاعة القرآن الكريم. اعترض آخر على ذلك بحجة أن القرآن يحتاج إلى إنصات.

التفتُ إلى الخلف، التقت عيناي بعيني ذلك الطفل الوسيم. ابتسم لي. كأنه يحاول فهم شيء مما يدور حوله، بينما الرجل إلى جواره يطوقه بخوف واضطراب. سألته: كيف حالك؟ "لا يفهمك،" قال مرافقه، "هذا ابني عبد الرحمن، أصيب في الرابعة من عمره بمرض نادر، أو ولد معه، عجز الأطباء في مستشفى الثورة في المدينة في علاجه، ويأسوا من شفائه، كانوا ينتظرون موته. صادف مجيء بعثة طبية ألمانية إلى المستشفى. أخذوه معهم لأنه يحتاج إلى علاج طويل وإمكانيات غير مؤهلة بها مستشفيات اليمن." صاح المسئول الجديد: "كذب، هدفهم تنصير أولادنا." اعترض بائع القات: "تنصير مؤخرتي، الطفل كان سيموت." تدخل الشاب العائد من الغربة بلهجة بلاد غربته: "يا إخوان.. شيب شعر رأسي من هذه القصص.. سمعتها

من أفارقة عندنا في السعودية.. يبغون يستغلوا حاجة الناس ويدخلونهم المسيحية." قال الرجل: "أقسم بالله أنهم مسلمين أكثر منا. عائلة ألمانية قامت بتبنيه، فهم يذهبون به إلى الجامع نهاية كل أسبوع، وفي الإجازة المدرسية يرسلونه بالطائرة لزيارتنا، استقبلته اليوم في مطار المدينة وحين تنتهي عطلته سأعيده إلى المطار، ويستقبلونه هناك." لم يقتنع البعض. تحدث الطفل بلغة عربية مكسرة أقرب إلى اللهجة العراقية، قال إنهم يذهبون به إلى الجامع كل جمعة، وينتظرونه في الخارج حتى ينتهي من طقوسه. اتضح من حديثه التالي أنه لا يعرف ما هي الكنيسة، لكنه يعرف الحديقة والجامع جيدًا.

استمروا في الجدال، وانفردت بالحديث معهما: "الوالد يعمل مزارعًا، يقتات من العمل في مزارع الآخرين، لي ست فتيات، وهذا ولدي السابع والأخير، بعت ما فوقي وما تحتي من أجل علاجه، لكن الأطباء هنا لم يفلحوا، كان جسمه هزيلًا ومرضه شديدًا، وكنا فقط ندعو الله وننتظر موته، وأنا فقير وعاجز لا أستطيع السفر لعلاجه في الخارج. رضخت والدته بإعطائه للبعثة، عالجه الأطباء، ثم منحوه لزوجين تبرعا بتربيته، أحباه، وأدخلاه المدرسة، ومن وقت لآخر يتواصلان معنا. تغطية الهاتف ليست متاحة في بيتنا، نصعد جبلًا لالتقاطها، الولد يحب شقيقاته ومن الأمس وهن يبكين فرحًا لمقدمه."

بعد قليل سوف أخرج من الحافلة. قبل ذلك كنت أتخيل اللحظة الأولى لدخول الطفل منزل العائلة- سيكون بلا شك منزل متواضع- وتدافع الفتيات نحوه للظفر بحضنه، أفكر بالطعام الذي ستقدمه له عائلته المعدمة.. لولا الوضع الاقتصادي المهين، لكان كل أطفالنا في مستوى جماله وبملابس نظيفة وأنيقة، سيرفع الآباء رؤوسهم إلى الأعلى. لولا الفقر لاستقبلته العائلة كلها في المطار.

توقف المطر، خرجت من الحافلة برائحتها التي تكونت من خليط عرق الأجساد وروائح الأفواه ومطبوخات المطاعم. الجو في الخارج جميل، والهواء منعش، وسُحب بيضاء تغطي الجبال، طابور من السيارات والحافلات امتد خلفنا. وأمامنا لازالت المياه تتدفق في المجرى بصوت مخيف، احتجنا ثلاث ساعات حتى توقف السيل. تحركت الحافلة، تجاوزنا العائق، وجرت على الطريق الترابي غير المستوي والأرض من حولنا ممتلئة بمياه المطر.

صعد الركاب إلى قراهم وبيوتهم المُعلقة على سفوح الجبال. البعض كان يحمل أغراضه على ظهره، وآخرون على ظهور حمير كانت تنتظرهم. يسارع الجميع بالوصول قبل الظلام، ليس لبُعد المسافة، لكن لوعورة الطريق. وصلت المنزل لحظة غروب الشمس، كان جدي قد أشعل الضوء، بمولد الكهرباء الصيني الجديد. لم أجد جدتي في الأسفل.

استغربت تواجدهما في الغرفة الخاصة بي، وهما لم يدخلاها منذ اختفاء والدي قبل إحدى عشرة سنة، وتضارب الأخبار بين موته واختفائه القسري، عدا إيمان قلب جدتي بأنه حي يرزق. توقعت حدوث شيء مؤسف، خاصة مع وجود صقراوي، لكنه قال لي: "عاد والدك." احتضنني والدي بحرارة وحب من ناحيته وببرود وصدمة من ناحيتي.

كان أبي قد اختفى في اليوم الذي سبق مجيء صقراوي وعائلته من عدن، وعاد في اليوم الذي تسبق مغادرتهما إلى المدينة. كان حقيقةً أمامي، يرتدي من قمصان جدي، ومطويته البيضاء. لم تكن هيئته تشبه الصورة الحية السابقة في ذاكرتي، ولا تلك الصورة المعلقة أعلى سريري. نحف وجهه واستطال، غارت عيناه أكثر، تشققت شفتاه التي لا تغادرهما السجائر، يمد ساقه بصعوبة، وينهض ببطء أكثر من جدي.

عودة والدي أفرغت ما تبقى من الحياة داخلي. كنت قد تعودت على فوضى الغياب في حياتي، غياب والدي وأمي، وتناسيتهما. عاد والدي وهو لا يشبه والدي. يجلس في زاوية الغرفة مستغرقًا شاردًا. لا أعرف بماذا يفكر. لم أسأله أين غبت، ولم يحدثني هو، وبدوري لم أعاتبه. جدي وجدتي أصابتهما الصدمة من هيئة والدي. رأيتهما أكثر كربًا بعودته تلك. كانا قد احتفظا خلال السنوات السابقة بهيئته التي غادر بها، وربما نسياها واحتفظا بصورته المعلقة على الجدار وهو شاب يدرس خارج البلاد.

٢

قبل عقد. وقبل أن أرى الحرب تلمع في السماء، كنت مسرورًا كطفل. جاءني والدي إلى مدرسة عدن في وقت الاستراحة وأنا أمضغ آخر قطعة من الساندويتش الذي أعدَّته لي أمي في الصباح. كانت قد مرّت أيام كثيرة على غيابه في عمله. قال: "هيا يا حسان سنسافر". لم أعرف إلى أين. وضعت الحقيبة على ظهري، خرجت معه سعيدًا وقد أفلتُ من حصة معلمة الحساب. لم أودع راية صقراوي، كانت في الفصل وكان والدي مستعجلًا. سبقته إلى السيارة التي أشار لي نحوها وارتميت في حضن أمي، وقد تفاجأتُ بوجودها هناك. صعد والدي إلى جوار السائق. صمت غارق، لم يقولا شيئًا، ولم أتحدث معهما، كنت قد تعودت الصمت في مثل هذه الحالات. اقتربت من النافذة لأنظر، من خلال زجاجها، إلى المباني والشوارع وهي تختفي من أمامي بسرعة كبيرة.

انفجرتُ باكيًا حين أصبحت المدينة التي هربت مني خلفنا. لا أعرف لماذا خطر ببالي أنّ تلك الأشياء والأماكن التي مرت بي قد اختفت إلى الأبد. كنت محقًا في ذلك، لكنني لم أكن أدركها بشكل واضح. كانت مثل لعبة كبيرة من تلك الألعاب التي نشاهدها في الملاهي. فهمت أنه لن يمكنني الذهاب يوم الجمعة إلى البحر. قربتني أمي إليها، أصابعها تغوص في شَعري

وسط الهواء الحار الذي يدخل من النوافذ المفتوحة، وأشعة الشمس التي أحسستها تحرق خدي.. ثم سمعت صوت والدي يوقظني: وصلنا. دخل هواء بارد، من الباب الذي فُتح، جعلني أرغب في النوم أكثر. انفتحت عيناي نصف المغمضتان في مكان غريب وسّط سيارة مختلفة وسائق آخر. وصلنا القرية بعد أن بدلنا السيارة في مدينة تعز. لم أشعر بذلك. لكن، خلال الطريق انتبهت لوجودي في حضن أمي وكأنها كانت تضع شيئًا في فمي وأنا أبتلعه على الفور.

كان صعود الطريق بالأقدام إلى القرية في الأعلى مخيفًا وسط الظلام. وحين ظهر القمر من خلف الجبل، كنت أراه بالضبط يلامس بيت جدي. سأضعه في حقيبتي. ونسيت ذلك حين كنت أجلس في حضن جدتي. قال أبي إنه سيرتاح لبعض الوقت. لم يعد يحتمل ما يحدث له من ضغوط في عمله، ولهذا عدنا فجأة إلى القرية. فرك شريط الدواء ووضعه أمام فمه. أدهشني، كيف ابتلعها دون ماء! لا.. لا تغش يا أبي. أنت لم تبتلعها.

لم أشعر بالملل. كوَّنت صداقات سريعة مع أطفال القرية. علموني لعبة الحرب- أحببتها بالتعود. هيا نلعب حربًا، يقولون. ثم اقتسمنا إلى فريقين دائمين. أشركت البنات في فريقي. كل فريق يصنع سلاحه بيده، نعجن رمل المقابر الناعم بالماء، نُشَكْلّ كرات من الصلصال، ثم تبدأ المعركة. نقذف بها على الأجزاء السفلية من الجسم، تنتهي الحرب يوميًا ببكاء فريقي والدماء تسيل من أجسادنا. اكتشفت في وقت لاحق الخديعة، كان الفريق

الآخر يضعون حصى وزجاج مهروس في كراتهم، ويقذفون بهن الجزء العلوي من الجسم. هكذا كُنا نعود يوميًّا إلى منازلنا نغسل الدِّماء. كان أول خداع فهمته. فكرهت الحرب، خصوصًا بين أبناء المكان الواحد.

تركتُ لعبة الحرب، أحببت لعبة قفزات الوحش على حافة زوائد الجبل. في كل مساء يجلس الرجال أمام بيت جدي، يشعلون موقدًا ويتسامرون، يتحدثون عن الأزمة السياسية في البلاد وتغيرات أسعار السلع والاغتيالات في العاصمة الموحدة صنعاء، ويلعبون الدمنة في الليالي التي ينام فيها جدي مبكرًا. يخرج جارنا سلام الصاحي للانضمام إليهم. أسفل القنديل الأصفر، يلمع شعره الأسود المتشابك وشاربه الطويل، ويتوهج وجهه الأبيض الماكر، يخلط الأوراق بين اللاعبين، لا يتركهم إلا وقد تشاجروا كالكلاب. لا أحد غيره يستطيع فعل ذلك. كنت مندهشًا بشعاع مصباحه الذي يخترق الليل كطلقة نارية، مصباح يَدَويّ غريب، قيل إنه حصل عليه من جهة عمله الأمنية في العاصمة صنعاء.

أقترب نحو المصباح فيسبقني في كل مرة إلى التقاطه ويُصوبه نحو الزوائد الحجرية في قمة الجبل: "انظر هناك وحش.. لا انتقل إلى هنا.. إنه هناك." كنت بالفعل أرى وحشًا أتتبعه عبر شعاع الضوء حتى يسقط في الهاوية. ذات ليلة وبينما أنا أتتبع الضوء وأنتظر قفزة الوحش الأخيرة من على حافة الجبل، قفزت حربًا حقيقة إلى حياتنا، لمعت صواريخ في السماء أقوى من شعاع مصباح الصاحي.

مضـــى الرجال يحددون مواقع الإطلاق ومواقع الســـقوط للصـــواريخ بين صاروخ أتى من صنعاء وآخر من عدن. كانت لعبة مثيرة، جذبتني أضواؤها، لكنني تذكرت لعبة الصلصال. طرفًا ما علَّم الآخر لعبة الحرب، ووضع فخًا في الكرات، أحدهم ســوف يبكي ويكتشــف الخديعة. غيرت رأيّ حين اهتزت المنازل على انفجار ضـــخم، ارتعدت على أثره صـــفائح مطبخ السطح، وسقطت نافذة حديدية من بيت صقراوي المهمل. هرب الجميع إلى الداخل. اختبأنا في مخزن الحبوب السفلي في بيت جدي، كنت محشورًا بين براميل الذُرة. لقد تأكدت أن في هذه اللعبة طرف ثالث وضـــع الخديعة للجميع، لأنني لّم أسمع فريقًا يبكي وآخر يضحك، كان الجميع صامتين. وتوقفت ليالي الســـمر ولعبة الصـــاحي الذي غادر اليوم التالي في ســـيارة شاجع.

في صـــباح أحد أيام الحرب، بينما جدتي تعد الشـــاي، وجدت علبة الســـكر فارغة. كان الماء يغلي على الموقد. أرســـلتني ســـريعًا إلى جارتنا زوجة الصاحي لتسعفها بقليل من السكر حتى المساء. لكن جدي في اليوم التالي عاد من السوق دون سكر. أغلق التجار محلاتهم. فهمت الأمر: حين تحدث الحرب يختفي السكر.

سَمعَ رجال القرية عن تاجر في قرية بعيدة خلف الجبل يبيع السكر، استيقظوا قبل شروق الشمس، ربطوا رؤوسهم بشيلان حمراء. كنت آخر من ودعهم وهم يصـــعدون الجبل بين الرياح الباردة، وأول من رآهم عائدين يحملون

الســكر على ظهورهم ظُهرًا بين رياح حارة. أســرعت إلى جدتي أبشــرها. اســتقبلتْ والدي عند الباب، ناولها الســكر ووضــعتْه في المطبخ، اختفت لبرهة، ثم عادت مسرعة ووضعته على رف طيني يعلو الأرض.

٣

بعد مضـي أسـابيع كثيرة على مجيئنا، قرر والدي العودة وحيدًا إلى مدينة عدن. كان مستعجلًا ولم ينتظر سيارة شاجع لتقله إلى مدينة تعز صباحًا، استبقها سيرًا على أقدامه. عجزت جدتي وأمي ثم جدي في ثنيه عن السفر، والحرب لازالت مشتعلة في أماكن عدة كما كنت أسمع. في اليوم التالي من مغادرته وصل العم صقراوي مع زوجته الدكتورة فتحية وابنته راية من مدينة عدن، بعدما قُصف منزلهم هناك بصاروخ جو أرض. كانت مفاجأة كبيرة حين رأيت راية أمامي، لقد تركتها آخر مرة هناك في المدرسة. ظن زملائي أني فُقدت، أو اختطفني غريب، أو بلعني ماء البحر.

أخرج جدي من أسفل حزام خصره مفتاح بيت صقراوي: "هذا المفتاح يا بُنَي، لكن المنزل وضعه سيء وغير صالح للسكن، تدهور منذ موت والديك وتسرب إليه المطر، وأنا كما ترى هدَّني الكبر وأخذتني الأرض من كل شيء. البيت بيتكم يا ابني، اصعدوا الدور العلوي وارتاحوا." بيت جدي يتألف من طابقين، في الأسفل ممر يفصل بين مساحتين للغداء والمقيل، نخطو من بينهما نحو درج معتم خلال النهار، على يمينه مطبخ به تنور الحطب وعلى يساره بيت البقرة. أنرت للضيوف حتى أوصلتهم الدور الثاني بغرفه الواسعة والمضيئة.

ارتدى جدي لحافه الخاص بالعمل سريعًا، أخرج سكينتين من مخزن أدواته، ومسحهما ببعضهما في الهواء. أحدثتا صوتًا حماسيًا ولمعتا على أشعة شمس العصر، ثم أخرج تيسًا سمينًا من الحظيرة. في تلك اللحظة كانت جدتي هاجر وأمي زهرة قد رفعتا ثوبيهما وعقدتاهما في منتصف جسديهما، وربطتا الشالين بشكل دائري على شَعريهما، ثم أشعلتا ثلاثة مواقد، بجوار جدي وخلف ركام الحطب، ووضعتا عليها ثلاثة قدور متفاوتة الأحجام.

قطعت أمي كمية من البصل. رفعت جدتي كم ثوبها، أخذت تحرك بملعقة خشبية البصل وهو يحترق بحماس في الزيت، في تلك اللحظة كان جدي قد انتهى من سلّخ التيس. قَرَّب قطع اللحم التي قطَّعها بسكاكينه الحادة. رمت جدتي اللحم في القدر الكبير، وأخذت تحركهما بمساعدة جدي، ثم ألقت كمية من البهارات. فاحت الرائحة وانتشرت في القرية بينما كانت والدتي قد وضعت الأرز في القدر الثاني، وكمية من الماء في القدر الثالث. لم تغرب الشمس إلا وقد استخرجتا الخبز من تنور الحطب، والقدور تغلي بمحتوياتها. أشّعلُ مولد الكهرباء الياباني ليضيء المنزل وما حوله.

حين جاء وقت العَشّاء، كان قد وصل بعض من أبناء القرية رجالًا ونساءً. تفاجأت بوجود الصاحي بعد غياب لبضعة أشهر. وزعت الصحون في أماكن متفرقة في الأسفل. في تلك اللحظة نَزَلَ صقراوي وزوجته فتحية كيالي، كانت راية تسبقهما راكضة نحوي، أزحت لها مكانًا بجواري. نادت

أم شـاجع ابنها الذي كان لايزال يشـرب سـائلًا تصـدر منه رائحة مزعجة في جوار القدور. كان نبيذًا قرويًا بالطبع. فدخل وقبَّلها على رأســها، ثم جلس على المائدة بجوار جدي.

كنت أول من غادر المائدة. تبعتني راية إلى الخارج، وجلســنا نصــطاد الحشرات التي تتحرك حول مصباح معلق على الشجرة. ثم تبعنا شاجع، هو لا يجلس كثيرا في المكان الذي تتواجد فيه والدته حتى على مائدة دســمة. يريد أن يأخذ راحته في الكلام والأكل وإطلاق النكات والتدخين، ويخاف أن تُذْكر سـيرة النبيذ في وجودها. أشـعل سـيجارة وأخذ يدخنها بحذر وهو ينظر نحو الباب، ثم أطفأها فورًا حين خرج الجميع لغسل أياديهم.

جلس الضـيوف على حصـائر أتت بها والدتي. تناولوا الشـاي أمام المواقد التي أشـعّلت الدفء وأداروا دفة السـهرة بالكلام. تحدث الصـاحي عن الحرب، وكيف حُسـمت سـريعًا. كان أول من دخل مدينة عدن مسـتطلعًا، يتباهى بدوره المهم في إسـقاطها، كان مسـرورًا، ويحاول تبرير حالات السلب والنهب التي تحدث عنها صقراوي. قال الصاحي: لم يخرج الأمر عن حالات قليلة وتصرفات فردية، وتدمير بعض المنازل.

تحدث جدي محسـن عن حياته السـابقة التي عاشـها في الحبشـة، كانت من أجمل الأيام. تحدث عن مغامراته في تلك البلاد، وعن أطباقها اللذيذة، ونسائها الفاتنات، وعن رحلته مع والد صقراوي إلى هناك، وتنافسهما على

بناء منزليهما في القرية، وطموحهما في تعليم أولادهما. كان يكرر حديثه هذا دائمًا حتى تناساه وصار كحلم بعيد، لكنه لم يقل أنّ التعليم جعل الأولاد يدخلون السجون، ولم يعترف أنهما عادا من هناك بعد أن جردهما قرار التأميم من ممتلكاتهما وخسرا كل أموالهما.

فجأة، نهض شاجع من مكانه، قال: "أستأذنكم.. مع السلامة." "إلى أين ستذهب؟" سأله جدي. "زوجتي تنتظرني في مفرق الوادي." ضحك الجميع. نهضت والدته وغادرت بعد أن أمرته بأن يبقى مع الضيوف، استرخى شاجع وحكى لهم قصة دخوله عالم الجن وزواجه من أجمل نسائهم. كانت كلمة أجمل لا تُعبر عن هيئة شاجع المهملة، التي تبدو بلا جهد يُرى. زوجتي مطربة ونجمة كبيرة، كما تعلمون أنا سائق، أحب عمل الليل على سيارتي. أكثر زبائني من الجن، فهم يدفعون أضعاف أجرة المشوار الذي يدفعه لي الأنس أمثالكم، وهم مسالمون جدًا، ليسوا كما تحكي الإشاعات التي تتداولونها عنهم. الحرب محرمة في عالمهم، قوانينهم لا تسمح بقتل الآخرين والاستيلاء على ممتلكاتهم حتى لو كان هذا الآخر من الإنس، اندمجت معهم، أوصلهم إلى منازلهم وحفلاتهم.. أنقل مرضاهم أيضًا. سأحكي لكم كيف تزوجت زوجتي. كنت عائدًا من مشوار ليلًا، عندما أوقفتني امرأة. قالت: انقلني إلى خلف جبل النسور. مكان موحش ومهجور. في منتصف الطريق، استغربت من هدوئها التام، لم تناقشني عن الحروب التي يشعلها البشر وتأثيرها على نفسيات سكان

عالمهم، ولم تصف عالمنا بالغباء وباقي الكلام المعتاد الذي يلوكه المتحضرون. التفتُ وأشعلتُ مصباحًا في الأعلى، كان رأسها ممدًا على الكرسي وقدما حمار على النافذة، صرخت بخوف: انزلي.. انزلي. نزلت ولم تدرك لماذا فعلت ذلك! أقسمت ألا أعود للعمل مع الجن في عالم الليل. لكن في ذلك اليوم وأنا عائد، أوقفني رجل لأوصله في مشوار عاجل، لم أستطع رفض طلبه فزوجته على وشك الولادة، والمشوار غير بعيد.

حين صعد إلى جواري حدثته عن قصتي مع المرأة، فرفع ثوبه من الأسفل وأشار إلى قدميه، قال: مثل هذه. نعم. أجبت وأنا أدوس على فرامل سيارتي. تماسكت رغم خوفي واستمريت في طريقي. عدت مضطربًا، معميًا عليّ، لم أشعر بهطول الأمطار، فنزلت مجرى السيل، فجرفتني السيول إلى مكان بعيد. أنقذتني جنية طيبة، كنت قد أوصلتها ذات مرة مجانًا إلى أحد الحفلات التي تقيمها. سحبتني من نافذة السيارة وحملتني إلى منزلها. جمالها يقترب من حدود السماء، وبياض بشرتها ونقاء روحها تنافس بهما السُّحب. ليتكم تعرفون كم هو منزلها نظيف ومرتب، وكم هم طيبون وكرماء. حين تعافيت، خرجتُ من منزلها. وجدت سيارتي أمامي سليمة وبلا خدوش، وكأن السيل لم يجرفها. قدتها وأنا أشعر بالخجل الشديد منهم، ومن تقوُّل البشر عليهم بالأقاويل وإلصاق التهم بهم ولعنهم طوال اليوم، وتحميلهم كل الأخطاء والشرور التي يقومون بها، والتعوذ من

أعمالهم طوال الوقت. هم لا يأبهون بنا، منشغلون على الدوام، ويشعرون بشفقة تجاهنا.

تكررت لقاءاتي معها. أحملها إلى الحفلات الكثيرة. جذبني صوتها العذب وأدهشني رقصها المثير حين حضرت إحدى حفلاتها. هي نجمة الطرب في عالم الجن والشياطين، لا يمر يوم دون أن تقيم حفلة. هل تعرفون ما معنى مسرح؟ في عالمهم مسارح كثيرة وكبيرة. هل تعرفون ما معنى سينما، لديهم دور سينما كثيرة، وأندية رياضية ومكتبات وكُتب. ولأنهم كذلك فأرقام أعمارهم كبيرة، لا يمكن لبشري أن يتخيلها. هل تعرفون كم عمر زوجتي؟! كل إجاباتكم خاطئة. فهي تعرف جدي العاشر، وتعرف إلى أبعد من ذلك. قالت إنها قرأت عن الحضارات القديمة في مكتبات بيوتهم. هي من قالت لي إننا كنا أصدقاء قبل آلاف السنوات وكنا نعترف بهم ونتعايش معًا. رغم أنها امرأة صغيرة في عالمهم لكنها تتذكر كل الحروب التي حدثت. هم يمقتون الحروب لأنهم عاشوها وعرفوها وجربوها، ولم تنقل إليهم عبر الكتب التي يدونها البشر المنتصرين، ويصفون من يقتل أكبر عدد من البشر بالزعيم التاريخي.

أخبرتني في إحدى الليالي وأنا أوصلها إلى باب الوادي أن أبطال الحرب الحقيقيين من عالم البشر هم الذين يرفضون الحروب وإراقة الدماء، وهم لا يتواجدون إلا في كتبنا فقط ولا يعرفهم إخوانهم من البشر. تعرفون لماذا هم ليسوا منقسمين إلى طوائف وقبائل؟ لأن كبارهم لا يموتون فلا يستطيع

أحد أن يتقول عليهم ويزيد على ما قالوه من كلام يُقدس حرفيًا من قبل الأجيال اللاحقة. كلهم قد تخلوا عما قالوه من كلام مقدس قبل قرون. يراجعونه حسب مقتضى الحال. ولا يوجد من يعترض ويقول لأهل الحكمة الكبار سوف أؤمن بكلامك القديم قبل قرون وأكفر بكلامك الحديث. لأن القول ليس ما يقوله صاحب الحكمة، بل ما يفرضه واقع الزمان والمكان من متغيرات والتعامل معها في سبيل الإبقاء على حياتهم شابة ودرء الموت عنهم. هم يعرفون أنه في اليوم الذي يموت واحد منهم سيموتون جميعًا.

ستقولون إنني مجنون وسكير وأهذي. هل تعرفون أنه في عمق الأماكن النائية والمقفرة مدن مأهولة، فيها كل الخدمات وسبل الراحة، لكنكم لم تروها، ولن تروا قراكم ومدنكم المأهولة التي يهربون منها، ويندهشون من قدرتنا على العيش فيها ويستغربون من غبائنا. ستقولون كالعادة إنني مجنون وأهذي، سأحكي لكم الجزء الذي ستفهمونه. تطورت علاقتنا وانتهت بالزواج، تزوجت بي رغم رفض ابن عمها، وهو من حكمائهم، إلا أنه لا يستطيع منعها. الآن لديَّ ابنة منها، ورثت جمال أمها وشجاعة وفهم أبيها...

في صباح اليوم التالي وجدت نفسي على سريري، في غرفتي العلوية ولم أعرف أين توقف حديث شاجع. لكن لن يفوتني شيء فكلامه هذا يعاودني من وقت إلى آخر. أتذكر قصته كلما رأيته أو ذُكر أسمه، هذه القصة هي

هويته، وحين ألتقي به أسـأله: هل هم بحاجة إلى سـيارتك؟! في الحقيقة لا يجيب أو أنني لم أسأله قط.

تلك آخر ضـيافة يقوم بها جدي قبل تَبَدُّل الحياة وتَغيُّر أحوال الناس. لعل قصـة شـاجع هي إنجازه في عالمه الخفي، وهي الإجابة عن أسـئلة الآخرين التي لا تعجبه: لماذا تعمل في الليل؟ ومتى سـتتزوج؟ وأين تذهب نقودك؟! لكنها كانت عالمه المثالي أيضًا، ذلك العالم الذي يتوق إليه ويوَّد أن يعيشه. أشعر أنها قصتي وشاجع يؤدي دور بطلها التمثيلي فقط.

٤

استيقظ العم صقراوي متأخرًا مع عائلته، وكان جدي وجدتي قد استيقظا مبكرًا وذهبا إلى أعمالهما في الحقول. رفضت الذهاب معهما ذلك اليوم؛ انتظرت استيقاظ راية لألعب معها. وبعد تناول طعام الفطور، الذي حضرّته أمي لهم، قرر العم صقراوي رؤية منزل طفولته.

تسطع الشمس في الصيف بجبروت في المنحدر الصغير بين بيت جدي ومنزل صقراوي، وزمهرير غاضب يمتد عبر المدرجات أسفلنا التي تتوقف في الوادي وتعود لتصعد الجبل المقابل إلى قمته. فتح صقراوي الباب الخشبي القديم بالمفتاح الذي سلمه له جدي.

نظرتُ و "راية" نحو والدها بحذر، وتراجعنا عن الدخول ونحن نشاهد النافذة وهي تنفتح وخفافيش كثيرة كانت معلقة في السقف، وأثارت بطيرانها غبارً من بقايا الطين الملتصق على الأخشاب القديمة. نظرنا عبر النافذة إلى الداخل. كان العم صقراوي يلمس الجدران ويمسح دموعه ببطء. نفض الغبار بين يديه، وجلس على أحد الحجارة المصقولة، ظهره منحنٍ إلى الأمام وعيناه تتحركان يمنة ويسرة. تذكَّر طفولته هنا، حيث نام في حضن والدته لسنوات في المسرات والأحزان، وذلك الشق الصغير في الجدار، المُطِل على الوادي، كان يجلس قربه ليغني، وفي ليالي رياح الشمال يأتي منه

صرير مخيف، وفي الأيام الممطرة، المصحوبة برعود وعواصف، يدخل منه الضوء والمطر. ربما تذكر صقراوي البرق الذي أحرق والديه في فراشهما. كان يدرس خارج البلد ولم يستطيعوا إخباره. عاد بعد سنوات من موتهما، ولم يجدهما. الآن، انتفض العم صقراوي فجأة من مكانه وخرج مسرعًا.

تحلقنا حول طعام العشاء كعائلة، أصواتنا صامتة وأقل صخبًا من الليالي التي مضت، سوى من صوت المولد الكهربائي في الخارج. ضوء القنديل يغسل الحيطان غير المستوية المدهونة بلون أزرق إلى المنتصف، ولون أبيض يصل إلى السقف ويغطي الأخشاب المائلة التي كانت في يوم ما أشجارًا شامخة. بحر وسماء لا فاصل بينهما. كنت أغرق في الزرقة وأنا أتخيل الاصطياد بيدي وأرسم بقلم أسود قاربًا بشراع قوي وشِّباكًا تجرف أسماكًا كثيرة، بينما راية كانت أذكي مني، رسمت جزيرة، ووقفت تراقبني من عليها وأنا أصارع الأمواج وأصطاد الأسماك.

لم يمنعنا جدي محسن من الرسم على الحائط، اهتم بتحريك الصمت، وإضفاء جو لطيف، ارتفعت ضحكته وهو يمازح جدتي. بانت سِنَّة ذهبية في ابتسامة صقراوي، كان صمته يريد أن يحكي. قال: أريد ترميم منزل والدي. قاطعه جدي: منزلي منزلكم يا ابني. أكمل صقراوي موضحًا: "فقدت منزلي في مدينة عدن بضربة صاروخية، وفقدت والديّ قبل ذلك بضربة كهربائية. لم يعد لي من مأوى في الحياة الآن، لا منزل ولا أهل، أريد أن أرمم هذا المنزل كذكرى وليكون مرجعًا لي ولابنتي من بعدي."

ذهبت للعب الغميضــة مع راية، أختبئ منها في دهاليز البيت التي لا تعرفها، وفي الزوايا التي لا يصــلها النور، أفاجئها دائما من مكان جديد، كانت تعتقد أنني ساحر يجيد الاختفاء والظهور. كنت أتلاشى في الزوايا التي لا يصلها النور، وما فائدة أن أغمض عينيّ في الظلام. اســتمرينا باللعب حتى أثقل النوم رؤوسنا.

بعد ثلاثة أشــهر من العمل، أكمل العم صــقراوي إعادة ترميم منزله. أو بالأحرى تكوينه من جديد. كان قد توقع الانتهاء من العمل فيه خلال ثلاثة أسابيع فقط. لكن جائزة التأخير منزل جميل. بدا على هيئة المنازل الحديثة المليئة بالضــوء والهواء النقي، لا يشــبه تلك المنازل القديمة المخيفة من خارجها وتحتفظ بالظلام في الداخل.

فتح نوافذ كبيرة في الغرف، اســتبدل طين الجدران الداخلية بالإســمنت المصــقول، ثم بطلاء أبيض. وصــلّ الحمامات بماســورة تؤدي إلى بالوعة بدلّ مجرى كان يؤدي إلى هاوية الجبل، حيث تكثر نباتات التين الشــوكي والغربان، وفي الأســفل حيث بيت الأغنام القديم، كانت الحيوانات قد راكمت عبر السنوات طبقات عالية من روثها ومائها- تكاد تمس السقف في بعض الأماكن. اســتخرجها العمال كتلًا كبيرة كأنها جلبت من المحاجر، ثم أُعيد استخدامها كسماد للمزارع بعد تفتيها.

قاد العم صــقراوي زوجته ليريها المنزل الجديد من الداخل لأول مرة. أخذت نفسًا عميقًا في الأسفل، صعدت إلى الأعلى ومن هناك وقفت تنظر

نحو المدرجات الزراعية الخلابة. التفتت نحو زوجها: لنبني حياةً جديدة لنا هنا. خططت سريعًا، سوف تفتح عيادة طبية في الطابق السفلي من المنزل، وتترك الجزء الأعلى للسكن. تحدث المهندس الزراعي صقراوي عن خططه بالعمل في مزارعه، واستصلاح مساحات أخرى. رغبت بأن يتحول بيت جدي مثل منزل صقراوي ونبقى نحن أيضًا هنا. كنت أسرع منهم فرتبت المنزل الكبير، وتركت الضوء يغمره من الداخل، وطليته كاملًا بالأبيض بدلًا من الأزرق. أنتظر عودة والدي وسيفعل هذا. انتظرته حتى وصل الأثاث الجديد لمنزل صقراوي واكتملت العيادة وجاء المرضى بسيارتهم من كل مكان.

"أين عيادة الدكتورة فتحية؟"

كنت أنتظر أن يسألني هذا السؤال الغرباء الذين يأتون من كل القرى البعيدة والقريبة، وأدلهم بثقة على المكان، وأحيانًا لا أكتفي بالإشارة فقط، بل أوصلهم إلى هناك حتى لو كنت في مزرعة جدي في الأسفل. ولا أكتفي بهذا. بل أدخلهم إلى العيادة، وأجلسهم على الكراسي.

مرت أشهر كثيرة على غياب والدي وانقطعت أخباره عنا. كلّ يوم يقولون سيّعود في الغد، ومع كل غد لا يأتي. عندما أكون في الطابق الأعلى أسمع صوته في الأسفل، وعندما أكون في الأسفل أسمعه يسعل في الأعلى. كنت أراه قادمًا من طريق الأقدام، وعندما يقترب يتحول إلى رجل غريب عاد من

المدينة بسيارة شاجع. لم أكن التقي كثيرًا بوالدي من قبل، كلما سألت أمي عنه تقول إنه في العمل. كان يغيب كثيرًا عن المنزل.

لكن هذه المرة يعيش الجميع في خوف، أمي وجدتي وجدي، ينتظرونه ويسألون عنه. كانوا يحاولون إخفاء ذلك عني، لكنني كنت أفهم ما يحدث. وهكذا بقيت أنتظره في عيونهم وابتساماتهم وضحكاتهم. كنت أفكر بما يمكنني فعله، فأجدني أفكر بما حدث له، أتخيل تفاصيلًا برأسي لا تدعني أنام بسهولة. أتخيل الصاروخ، الذي دمر منزل العم صقراوي، يقع على منزلنا ووالدي داخله. أتخيل مسلحًا، من هؤلاء المسلحين الذين ينتشرون في القرية، يطلق النار على والدي في الظلام.

كتب صقراوي رسائل كثيرة أرسلها مع شاجع إلى أصدقائه. كانت جدتي تبكي مع كل جواب يصل. كنت أفهم من الدموع الكثيرة أنه ضاع إلى الأبد. ثم لم يعد يزعجني الأمر حين شعرت لأول مرة أنني لم أعُد طفلًا، وصرت أفهم كل شيء، لكنني كنت طفلًا؛ لأنني لم أستطع فعل شيء.

٥

حين عاد سنترال الهاتف الوحيد في المنطقة إلى العمل، ذهبت مع عمي صقراوي مشيًا على الأقدام إلى مركز مُدّيرية العُلاء. كنت أعتقد بأن البحث عن والدي هي مهمتي، سلّكنا طُرقًا مُتعَرجة، وقطعنا جبالًا وأودية أسفل شمس تحرق رأسي وعلى حجارة نتعثر بها. قال العم صقراوي إنه عَبَرَ هذا المكان كثيرًا في طفولته، ليبيع الحلوى على حماره، تلك الحلوى التي كانت تصل عبر الجمال من مدينة عدن في غياب والده في الحبشة. هل يجب عليّ أن أعبر هذه الأمكنة وأبيع الحلوى في غياب والدي أيضًا؟!

وصلنا السنترال. كنت قد تخيلته مبنى بداخله أسلاك كثيرة ولاقِطّات تلفزيونية وأجهزة مُعقدة، شعرت بهذا أيضًا وأنا أرى اللاقط الأسود الكبير يحط على المبنى كطائر غراب ضخم. كيف جاءوا به إلى هنا! لا شك أنه قد حط كتلك الطائرة المروحية التي حلقت ذات يوم فوقنا على ساحل بحر عدن.

من الداخل وجدته غرفة تشبه إدارة مدرسة القرية. وقفنا في طابور طويل من النِّساء والأطفال والعجائز، يرِّدن الاطمئنان على ابنائهن ورجالهن. يحملن أوراقًا مهترئة مكتوب عليها أرقام الهواتف، معظمهن لا يستطعن القراءة. أسمع الأصوات: اضرب الرقم إلى السُّعودية، إلى الكويت، إلى الإمارات،

إلى البّحريّن، إلى مّصر، إلى روسيّا، إلى أمريّكا، إلى أثيوّبيّا، إلى جيبوتي... من يُصدق أننا كُنا في تلك المنطقة النائية وفي غرفة ضيقة نسمع أسماء كُلّ بُلدّان العَالم!

لم تكن المكالمات واضحة، كانت هناك فوضى ومشكلات كثيرة في الاتصالات، فليس كلّ حديث يمكن سماعه. تتداخل المكالمات دائمًا مع أصوات أُخرى كما كان يُقال. لم يأتِ الجميع لسماع أصوات مُغرَّبيهم، بل ليّتركوا لهم أخبارهم في متاجر ومنازل الأصدقاء والمعّارف على الرقم المطلوب.

وصلنا أخيرًا إلى موظف السِّنترال. أمامه سّماعة عادِّية تُشبه سماعة هاتف منزلنا في عدن. يخرج منها خيطًا صغيرًا يختفي في شق النافذة، لا بد أنه يصل إلى كل مكان في العالم. لو أستطيع التزحلق عبره وأذهب إلى حيثما أريد. كان موظف سماعة الهاتف الحكومي رجلًا ضخمًا ومتجهمًا، يقف خلف مكتب صغير، وبكلتا يديه يمسك بمقبض سماعة الهاتف الثمينة. أدار رقم منزلنا في عدن. كان مفصولًا، رغم ذلك طلب مبلغًا من المال. رمى العم صقراوي ورقة نقدية من الفئة الجديدة أمامه، ثم طلب منه الاتصال برقم آخر، وافق بعد إلحاح شديد وأدار رقم منزل حماه، أجابت عليه حماته. لكنها لم تكن تعرف شيئًا عن أبي. وسنعود بعد أسبوع لنعرف إن كان وصلهم أخبار عنه.

خلال هذا الأسبوع كان العم صقراوي قد اتخذ قرارًا بتسجيل ابنته راية في مدرسة التصحيح للبنين والبنات في القرية. انعطف الأسبوع فذهب إلى السنترال لوحده. عاد في شمس الظهيرة منهكًا. ارتمى على ركام الحجارة أمام بيت جدي، يجاهد أنفاسه ليقول شيئًا. أتت والدتي بالماء المبرد. دلق ثلاث كاسات والعرق يندي من على وجهه. قال الحقيقة بلا مواربة: يؤسفني أن أخبركم أنهم لم يعثروا عليه. وفي بيته؟ قالت جدتي، أجاب: هناك عائلة تسكن في منزله، لم يُعرف من هم، لكنهم ليسوا من أبناء المدينة، حتى أنقاض منزلي أُزيلت وبُني مكانه متجر للعطور والإكسسوار.

أتذكر ذلك جيدًا، كان جدي واقفًا خلفنا كمن يتأهب لمهاجمة شيء ما، وفأسه معلق على كتفه الأيمن، يقبض عصاه في منتصف صدره. لم يقل شيئًا، غادر إلى غُرفته وبقي صامتًا هناك حتى الصباح، لكنه لم يتوقف عن البحث. ولم تتوقف جدتي عن البكاء، وأمي عن الحزن. كنت أستيقظ في منتصف الليل على بكائهن، يرفعن أياديهن إلى السماء ويلهجن بالدعاء. كان قلب جدتي لا يتوقف على الانقباض. بينما استمر جدي سنوات طويلة يلعن كُلّ ما في البلاد من سياسيين ويلعن أيضًا ما يؤمن به والدي: "ضعنا نحن بين أديس وأسمرة، أنهكت أولادنا صنعاء واستهلكتهم عدن. وأطفال جدد يولدون للاغتراب. قدرنا أن ننفق زهرة أعمارنا في بلدان الآخرين."

"في الغد سوف تذهبان إلى المدرسة."

قالت الدكتورة فتحية وهي تُغلق عيادتها في تمام الساعة العاشرة مساءً، بعد مغادرة آخر مريض. تغيرت طريقة الذهاب إلى المدرسة. سابقًا كنت أتشوق العودة والانتقال إلى صف جديد، أشتاق أصحابي بعد فترة غياب. لكن العام السابق فقدت عامر، قيل إنه حوَّل إلى مدرسة أخرى بعد أن فصلت الحكومة والده من وظيفته.

يطفئ جدي مولد الكهرباء الياباني مبكرًا وينام قبل العاشرة. صعود الدرج المظلم يخيفني في كل مرة. أبحث عن سريري وأرتمي عليه. إذا لم تتذكر الدكتورة فتحية أنه يجب أن أعود إلى المدرسة لن تتذكر أمي. شغلها غياب والدي، وأنا لن أذهب غدًا. وهي لم تشترِ لي زيًا مدرسيًا. سأتظاهر بالنوم.

أيقظتني جدتي مبكرًا في الصباح. هيا اذهب إلى المدرسة. أنا لم أسجل بعد. سجلك صقراوي. أين ملابسي ودفاتري وأقلامي وكتبي. سحبتني جدتي من يدي: هيا يا كسول. قالت إن هذه الأشياء التي أطلبها ليست مهمة من أول يوم. المهم عندها أن أذهب إلى المدرسة. تشجعت للذهاب خفيفًا. جاءت راية ونحن نتناول الفطور، سرَحّت لها والدتها شعرها إلى الخلف، وترتدي ملابس مدرسة عدن، وحذاءً أسودا، وزمزمية ماء تحملها. قلت لجدتي أنا لن أذهب إلى المدرسة. قالت: البنت تنتظرك.. هيا كُل بسرعة.

أمي صامتة. لم تتدخل بشيء ولم تجهزني مثلما كانت تفعل في مدرسة عدن. كانت توقظني مبكرًا، أتناول الفطور، ثم تضع زمزمية الماء والساندوتش في حقيبتي وتوصلني بنفسها إلى باب المدرسة.

جاءت الدكتورة فتحية: هذه حقيبة حسان فيها دفاتر وأقلام وزمزمية ماء، وهذه ملابس المدرسة، جاء بهم صقراوي أمس من المدينة، اعتمدت على راية لكنها نست أن تعطيها لحسان. احمرَّ وجه جدتي. قالت: ليس ضروريًا. قالت الدكتورة فتحية: لم يتكلف.. فقط أخذهم مع ملابس راية.

انحدرنا عبر طريق الأقدام، مشينا ببطء في الظلال التي لم تصلها أشعة الشمس بعد، نقطف الزهور من الأشجار المجاورة ونلعب، نتابع الفراشات، نرمي الحقائب ونقذف الأحجار نحو السحالي التي تمر جوارنا حتى وصلنا المدرسة. وجدنا صفنا. دخلنا الصف الرابع على الرغم من كوننا لم ندخل اختبار نهاية العام الماضي. لا أعرف كيف حدث ذلك. يجلس الطلاب على الأرض ولا يرتدون ملابس موحدة، ومعلمنا يرتدي ملابس جدي في المزرعة، ويحمل بيده عصى الثيران. عدا ذلك، المدرسون بأجسامهم الضخمة، يشبهون المدرسين العراقيين والمصرين والسودانيين في مدرسة عدن. ربما ساقتهم الحرب إلى هنا.

أثناء الاستراحة بين الحصص اكتشفت أن في المدرسة دكانًا صغيرًا، يبيع البسكويت والعصائر والشوكولاتة التي تلتصق بغلافها. ويبيع المياه أيضًا.

التوأمان أحمد وعلي سـرقا المياه من راية، وكادا أن يفعلا مع أقلامها، ثم سـخرا من شـعرها الذي لم تغطه، ونزعا حجاب فاطمة لأنها تُقلِّد بنات الصـفوف الثانوية. اشـتبكت معهم في مرات كثيرة. وعاقبنا المدير بعشـر ضـربات بالخيزران على باطن أيادينا. غيرنا طريقتنا، نقوم بإعلان التحدي داخل الفصل ونتشاجر خارج المدرسة.

٦

كنت أعود كلّ يوم لأجلس خلف نافذة غرفتي. أحببت النظر إلى المدرجات الزراعية والوادي، وشرب الشاي هناك. في أحد الأيام كان الغبار كثيفًا أمامي ويخفي الجبل. رأيت رجلًا غريبًا يصعد طريق الأقدام، يرتدي ثوبًا أبيض وعلى رأسه يلف شالًا أحمر. برزت لحيته وصار مرئيًا أمامي. لولا شج كبير على وجهه لما عرفته؛ فقد تغيرت هيئته كثيرًا وصار يلبس ثوبًا أبيض طويل بدلًا من بدلته السفاري المقلّمة، ولحية بدلًا من شاربه الكث العريض. يقول جدي: يتطلب الزمان أن يغير الإنسان جلده من الداخل والخارج وليس فقط من هيئته الخارجية.

ألقت والدتي الثوب الذي كانت ترتقه. ونزلت إلى الأسفل لاستقباله وفي يدها كأس ماء. بقيت أراقبه من النافذة. كان يدور أمام المنزل بقلق. وصلت أمي إليه قبل أن يطرق الباب أو ينادي. أشاح بيده رافضًا الدخول، مفضلًا الجلوس على أحد الحجارة أمام المنزل.

جلست أمي قبالته تنظر إليه بفرح. خالي سالم سيساعدنا في العثور على والدي. لم التقِ به من قبل سوى مرة واحدة في منزل عدن، لكن الشُج في جبهته رسخ في ذاكرتي، عندما قال لي إنه تلقى ضربة في السجن تركت على وجهه هذه العلامة. تغيرت ملامح أمي سريعًا وسالت دموعها. بدأت

بالصراخ وهي تمسك على قلبها. خرجت جدتي بخطوات سريعة. وصلت الدكتورة فتحية حافية القدمين، احتوت والدتي التي استقامت ومن ثم أعادتها إلى مكانها، أشاح خالي سالم عنهم، تحدث بصوت لم يصلني وعيناه مصوبتان إلى مكان آخر. لا أعرف شيئًا عما يحدث في الأسفل. لكن شعوري تبدل نحو خالي سالم. وددت لو أقذفه بكوب الشاي الذي في يدي.

نزلت. كان الجميع لايزال هناك وقد غادر خالي سالم للتو. كانت جدتي تضع يدها على صدرها وتتمتم بكلمات غير مفهومة. ووالدتي تنظر نحوي بنظرات غريبة. ذكرتني بنظراتها لي حين أصبت بالحمى في منزل عدن، في غياب والدي. كانت تلتقي نظرتي بنظرتها هذه من أسفل الضمادات الملفوفة حول رأسي. همست راية في أذني سر هذا البكاء. تجاوزت الجميع مسرعًا، أخفيت وجهي بقميصي وانفجرت باكيًا في المخزن المظلم.

بعد ساعات من مجيء خالي سالم في غياب جدي. شعرت جدتي بدوار لم تستطع مقاومته. كان جدي يسألهما بإلحاح: هل حدث شيء لابني؟ ترك لهم ظهره نحو الباب. فتجاهلت الخبر المرعب الذي حدثتني عنه راية. كم كنت غبيًا. لم يحدث أي شيء من هذا القبيل.

أمسكت والدتي دموعها وبدأت تقنع جدتي بالذهاب إلى العيادة. ربما كانت راية بعيدة ولم تسمع الخبر بشكل دقيق. وافقت جدتي على الذهاب إلى عيادة الدكتورة فتحية بعد إلحاح. توكأت بعصا ويدها الأخرى في يد أمي.

كنت أرمي من أمامهما كل ما يمكن أن يتعثرا به من قطع أحجار ومخلفات أخرى.

صادفنا مرور النقيب الصاحي يقود ولده الصغير قناف. لم تكن جدتي تعرف متى عاد من مدينة صنعاء. كانت المرة الأخيرة التي رأته فيها في ذلك المساء الذي عاد فيه صقراوي. بدا راغبًا في تجاهل جدتي لولا أنها اعترضته بصوت لا يستطيع معه الاستمرار في النظر إلى مكان آخر. قالت: ابحث لي عن ولدي يا ابني، لديك معارف في كل مكان، أنت ابني أرضعتك من صدري.. الله يرحم والدتك. رد: الله يرحمها.. لكن هذه إشاعات وأنا لا أعرف أحدًا يا عمة؟ قالت جدتي: لا أنام الليل من قلقي على ابني. تركت يد أمي ومدت يدها نحو السماء. ثم نزعت حلقتيها وخاتمها ووضعتهما في يده وأقفلتها.

"ولا يهمك يا عمة.. سأحاول."

لا أعرف كم من الوقت مضى على مجيء خالي سالم لزيارة أمي. منذ ذلك الوقت، قبل أن يتطوع في إدارة أنشطة المدرسة، مر عيد فطر مرتين، وعيد أضحى مرتين. رحل برد قارس مرتين وحل محله حر شديد، سقطت الأمطار وزرع جدي الأرض، ثم حصدها وزرعها مرة أخرى وها هو يستعد لزراعتها مرة ثالثة رغم انشغاله في الدكان الصغير. اختبرنا امتحانات نهائية في المدرسة مرتين أو ثلاث. حققت راية دائمًا المرتبة الأولى في فصلنا.

تغير وجه أمي نحو السُّمرة، تبعثرت في وجهها نجوم سوداء، وطبعتا فحم برأس إبهام بقيتا أسفل عينيها. لم تذهب إلى كل أعراس القرية، ولم تستقبل

الضيوف، ولم تسألني عن أي شيء في مدرستي. هل أصيبت أمي بالخرس؟ "الله يعينها على ما بها." تقول جدتي.

ذهب شـباب من أبناء القرية إلى الجهاد في أفغانسـتان. يقولون إنه لم ينجُ منهم سـوى حازم الذي اشـتغل بعد ذلك في تقطيع الحجارة من الجبل وبيعها، ثم ترك كل شيء وذهب للجهاد في البوسنة.

كان يصـل مرضـى كُثر إلى عيادة الدكتورة فتحية يوميًا ومن كل القرى. فتحت صـيدلية، وبنى جدي دكانًا صـغيرًا بالحجارة، وسـقفه بأخشـاب وأحجار وطين وتراب. يقضـي معظم يومه هناك حتى يأتي شـاجع ببضـاعته من المدينة. كانت الأسعار تتصاعد في كل مرة. والمرضى يشتكون من غلاء ثمن الدواء الذي لا يستطيعون شراءه. بينما تقسم الدكتورة فتحية أنها تبيعه بأقل من الأسعار التي يباع بها في صيدليات المدينة.

يتحدث خالي سـالم عن أخلاق الطالب كل يوم من ميكرفون طابور المدرسة الصباحي. وحين كان وجهانا يلتقيان بالصدفة في المدرسة، وفي أماكن أخرى من القرية، كان يشيح وجهه عني كغريب، بينما يلاطف زملائي الآخرين. لم أعرف في الحقيقة لماذا يكرهني؟ كنت أعود إلى المنزل وأنظر لوجهي في المرآة، وأراجع حديثي وكلامي خلال الليل ولا أصل إلى شيء. تقول راية: تجاهله هو شرير. كانت على حق فهو يشبه القرصان البغيض في حلقة المسـاء. على خلاف الآخرين كنت أرى عورًا في إحدى عينيه. "هناك حول في عينيك"، قال لي أحد التوأمين العنيفين في صفي.

ربما هو محق فكل الناس تحبه. يركض الأطفال نحوه حين يرونه، يضعون قبلة الاحترام على ظاهر يده، أو ينحني لهم برأسه ليقبلوها، أو يدعَهم يقبلون ركبته في الجامع بعد الصلاة. قبلته ذات مرة على رأسه. كنت متأثرًا بلحيته البيضاء، والاحترام الذي يبديه له الناس. بكيت وأنا عائد إلى المنزل. هل كنت أبحث فيه عن أبي؟ لماذا قبلته؟ كان شعورًا في داخلي يلومني بعنف. ذلك الصوت هو صوت جدي. لماذا تقبل شخصًا لا يحترمك؟ لا تعيدها مرة أخرى.

كرهت البقاء قرب كل من يتمتعون بالاحترام الكبير من الآخرين. يروقني البقاء إلى جوار شاجع وهو يصلح سياراته، ويتفقد دراجته النارية الجديدة، كان يهتم بحديثي، ويجيب على أسئلتي حتى وهو يهوى بمطرقته على جسم السيارة في الأسفل. كان يحدثني رجل لرجل، لا كصغير يقترب من عيد ميلاده العاشر. رغم ذلك لن أتمكن من التصويت في الانتخابات النيابية الثانية التي يحضرون لها. سمعتُ أن والدي كان يعتزم الترشح لهذه الدورة كما قالت جدتي. لكن، من يدري أين هو الآن؟

رأيت خالي سالم يمسك رزمة من الورق المصقولة ويلصقها على جدران فصول المدرسة. كان الوقت ظهرًا وأشعة الشمس تنعكس عليها. اقتربت من إحدى الصور بعد انتهائه من لصقها على كل مكان في باحة المدرسة. صور بالأبيض والأسود لا تُبين ملامح الشخص المرسوم بسهولة، لولا

الجملة التي كتبت أسفلها: مرشحكم العقيد سلام الصاحي في مجلس النواب عن مديرية العُلا، الدائرة الانتخابية (صفر).

علّقَ المُسلَّم صور الدعاية الانتخابية في كل مكان، على أبواب المنازل والنوافذ، وجذوع الأشجار وسيارة شاجع. ورسم بقعًا مطموسة وملطخة على الجدران وحواف الصخور وصدر الجبل، قيل إنها شعار الحزب الكبير. لكن هذا الشعار، والشعارات الأخرى التي رُسمت، كانت تسبب لي حرجًا كبيرًا وتجعلني أخجل أمام زملائي.

كانوا يتحدونني برسم شعارات الأحزاب على دفاترنا بدقة. كانت راية تنقذني دائمًا من هزائم كثيرة حين كانت ترسمها على دفترها مسبقًا وتبادلني به في ذروة انهماكهم في الرسم. في المساء كنت أبكي من هذه المشكلة البصرية التي تجعلني ناقصًا أمام الآخرين. كرهت الأحزاب لأنها تستخدم شعارات صعبة أعجز عن نسخها إلى دفتري.

عادت جدتي من المزارع بعد نهار شديد الحرارة. وعاد جدي من دكانه لتناول الغداء. غيرا ملابسهما وارتميا على دكة المدخل في الأسفل، مددا أقدامهما واتكئا على وسائد من القش، وأنا ألعب أمامهما، أركض وأحرك مقبضي دراجة نارية وهمية، وأحشرج كصوتها، وأدور حول شعاع شمس قوي يدخل من النافذة.

ارتفع صوت عالٍ من الخارج: "الله.. الله.." ولم ينادِ باسم صاحب البيت كالعادة. ربما هو غريب قال جدي. أدرت الدراجة الخفية، وهدرت بصوتها النفاث، التصقت بالعتبة ومددت رأسي وأعدته.

"جدي، هذا خالي سالم."

نفض الإرهاق من جسده وخرج يرحب به ويدعوه للدخول. جاء لأخذ أمي. سأله جدي بتعجب: إلى أين؟ لا داعي لبقائها طالما زوجها قد توفي. انتفض جدي وثارت ثائرته. أتت والدتي وحالت بينهما من الاشتباك. لكن اللعين حاول جرِّها من يدِّها.

تناول جدي فأسه الملقى على رزمة حطب أخضر، ولوح به في وجهه: إنّ لم تتركها.. سأقطع رأسك. ذلك الرأس الذي قبلته يقول إن والدي توفي. رأس مقرف وغبي. علامَ يحبه الناس ويحترمونه! ربما تنتهي كلماته اللطيفة أمام بيت جدي.

ذهب مهددًا أمي بالعودة، ويتوعد جدي إلى ما بعد الانتخابات. ما الذي فعله جدي حتى يؤدبه؟ لهذا أنا لا أحب الأشخاص الذين يقبلهم الأطفال قبلة الاحترام. لا أحب الأشخاص الذين يبدون مثالين أمام الغرباء. أحب الأشخاص الذين يعتبرهم الناس مجانين.

٧

بقبلات الاحترام وأسنانه البيضاء، يقنع سالم- الرجل الذي لم يعد خالي- الناس بأهمية اختيار النقيب الصاحي عضوًا لمجلس النواب؛ فهو سيطور مديرية العُلا وسيأتي بالمشاريع إلى المنطقة، وسيمنع الحروب القبلية.

وصل تراكتور كبير يرفع جرافة ضخمة أمامه وناب فولاذي مخيف خلفه. دك رابية صغيرة بجوار المدرسة، وجعلها مستوية أمام أعين الناخبين. أتى سالم ورسم بمسحوق أبيض مساحة ملعب كرة قدم، ثم خطط المستشفى، رسم غرف الأطباء والممرضات وقِسم العمليات.. وأماكن انتظار النساء، وقسم علاج الأطفال. لم يتبق مسحوق في العلبة حين تذكر شيء آخر. فمضى يرسم بقدمه مساحة مربعة في جانب عشوائي: هنا ستكون الصيدلية التي ستصرف الأدوية التي سيكتبها لكم الطبيب مجانًا. كان أبناء القرية مندهشين، فيأمرون أولادهم بتقبيل ظهر يد سالم. اقترب رجل من الدائرة نحوه، وقال: هذا ابني الذي قبلك قبل قليل. هز سالم رأسه. كنا قد وصلنا أسفل القرية والموكب يتسع ويضيق خلفه. أشار نحو التراكتور: يشق الآن طريقًا سيمر بكل قرى الدائرة.

من نافذتي في بيت جدي كنت أراقب التراكتور الذي توقف بعد مسافة قصيرة من المستشفى المتخيل في عقول الناخبين. هبت رياح شديدة كنست الرابية

المستوية، وحملت المسحوق وبقايا المخلفات في طريقها من أمام الدكان وغطت به التراكتور المتوقف في مكانه. حين توقفت الرياح لم أرَ شيئًا في مكانه: لا مستشفى سالم ولا ملصقات الدعاية الانتخابية وشعارات الأحزاب، ولا التراكتور الأصفر.

لا أعرف إن كانت تلك الأشياء قد انمحت من أمام عيون الناس مثلي أم ما زالوا يرونها. ربما ما زالت تعشعش في خيالهم. قبل الانتخابات بيومين جمع سالم أطفال القرية، ووزع عليهم الحلوى: ما شاء الله.. كبرتم.. صرتم رجالًا وتستطيعون التصويت في الانتخابات. في اليوم التالي قبل غروب الشمس أخذهم إلى لجنة تسجيل الناخبين، دخل ساحة المدرسة متباهيًا والأطفال خلفه، صفهم في طابور منتظم أمام لجنة التسجيل بعد أن كتب أسفل أقدامهم الرقم 18. حين تسألون أية اسئلة ليكن ردكم الوحيد: أقسم بالله أني فوق 18. عاد أصدقائي جميعًا يتباهون ببطائق انتخابية وصور بائسة لا يحسدون عليها.

في الليلة التي سبقت موعد الانتخاب بيومين، جهز سالم لاحتفالية كبيرة في ساحة المدرسة. بُنيت منصة عالية، وفُرِّشت حصائر على الأرض أمامها. وفي اليوم التالي وصل المرشح الأهم للانتخابات مع الأطقم العسكرية لمديرية الأمن كاملة، وغرباء من مناطق أخرى بالدفوف والأناشيد، يهتفون للصاحي مرشح الحزب الأقوى والأهم. ألقوا كلامًا غير مفهوم من ميكروفون يدوي، يشبه ذلك الذي يستخدمه بائعو الدجاج من سياراتهم

حين يصلون أسفل القرية. أُلقيت مسرحيات وأناشيد وهتافات. كانت مجموعة من الثيران قد ذبحت ليلًا للضيوف القادمين، تبرع بهم شيخ قبلي شاب. كان غداء دسمًا في صحون استعاروها من القرية والقرى المجاورة.

سهر سالم طوال الليل في فرز الصحون ومعرفة لمن تعود وقد نسي مساعدوه وضع علامات والكتابة عليها، لكنه استيقظ مبكرًا في صباح يوم الاقتراع، وتواجد قبل الجميع في ساحة المدرسة، يحدث كل شخص يراه: ضع علامة صح في المربع أسفل هذا الشعار، كان يشير إلى الرمز الانتخابي الخاص بالصاحي.

بالطبع نجح الصاحي في الانتخابات، وصار عضو مجلس النواب رغم كل الشكوك التي كانت تثار حول احتياله وهي واردة ومعروفة. ذهب إلى صنعاء ليطل علينا من التلفزيون الأول وانتهى الأمر. حين تعاودني تلك التفاصيل الآن وقد صرت شابًا أتأكد من سوء الأحلام التي تنبت في الخيال وتتغذى من أحلام وخيالات وأفكار أخرى. بعد مرور سنوات لم يطالب أحد الصاحي بتنفيذ الوعود، بناء المستشفى وشق الطريق وإيصال مشاريع الماء والكهرباء، لكنهم كانوا يلقون اللائمة على منافسيه التعساء.

حين انتهت الانتخابات النيابية وعُيِّن سالم مديرًا للمدرسة، كنت قد نسيت تهديده. جدي وجدتي نسيا أيضًا. وتناست أمي. أو هكذا تهيأ لي. ربما كنت أحاول ألا أفكر في الأمر.

في وقت مبكر وقبل أن تذهب جدتي إلى يومها المعتاد إلى المزارع، وقبل أن يفتح جدي دكانه. كنت في نافذتي المفضلة، أستمتع بدفء الشمس التي تشرق على قمم المدرجات. وصل ستة عساكر من مديرية الأمن إلى بيتنا. سلَّم الضابط الكبير جدي محضر الاستدعاء فذهب معهم.

في عصر ذلك اليوم عاد العم صقراوي دون جدي. قال: لم يكن هناك أي خطأ في أمر الاستدعاء. هناك شكوى قدمها سالم ضده، وبناء عليها وعلى شهادة الشهود، وجهت لعمي محسن تهمة الشروع في قتله، ومن المحتمل أن يُحول إلى النيابة العامة في حال لم نتمكن من إخراجه. قالت الدكتورة فتحية لزوجها: هذه تهمة لفقها سالم، فهو من اعتدى على منزل عمي محسن، ومن أين أتى بالشهود، في المرتين التي جاء بها كنت متواجدة، ولم يكن هناك غيرنا!

مشكلة أخرى. ضغط صقراوي على يده حتى أدماها وهو يتحرك في الغرفة، أمامنا. ماذا يريد سالم النذل منا؟ ردت والدتي: اخفض صوتك حتى لا يسمعك أحد.. لا نريد تهمة أخرى. قال: تقف مديرية الأمن والسلطة معه. ماذا يريد سالم؟، يريدني أنا، قالت والدتي.

في الليلة الأولى التي بات بها جدي في السجن، بتنا نحن خارج غرفنا. كنت أعتقد أن أبناء القرية سوف يجتمعون في اليوم التالي، وسيذهبون إلى إدارة الأمن ويواجهون سالم ويعودون ومعهم جدي. مرت ثلاثة أسابيع ولم

يحدث شـــيء مما توقعت. ولم يحول جدي إلى النيابة العامة، ولم ندخل غرفنا للنوم وجدي ليس في غرفته.

تستيقظ جدتي ليلًا وتتخيل جدي نائمًا بين اللصوص والمجانين والقتلة، ثم تتخيل القمل يمتص جســده حتى يحمر. تتخيله كما كنت أنا أتخيل والدي وهو يسعل على سريره، وتتخيل صوته قادمًا من الأسفل. لماذا لم تقبض أرواحنا يا الله قبل أن نعيش هذا الزمن الذي يســوق الأبناء فيه شــيبتهم إلى الســجن ظلمًا ولا يحرك هذا أحد. ثم تلوم والدي، لأجل من يناضــل ويعارض الحكومة؟ لأجل هؤلاء الناس الذين صــمتوا عن رمي أبوه في ســجن مديرية الأمن. لم يغترب أبوه في الحبشــة إلا لكي يرســله إلى عدن للتعلم ويرفع به رأسه لا ليدخل والده السجن في نهاية عمره. يحق لجدتي أن تلوم والدي على الرغم من أنه لا علاقة له بدخول جدي الســجن. كنت كل ليلة ألوم الموت لماذا تأخر كل هذا الوقت. خلال النهار كنت أرى كل الناس يعيشون بشكل طبيعي، يضحكون، يبتسمون، يغنون. يلقون النكات. لماذا يعشعش الحزن والخوف في بيتنا فقط؟

اتخذت حياتنا طريقًا آخر لا يشــبه طريق كل من حولنا. لا يتواجد في هذا الدرب سوى نحن. لا أعرف إن كان الناس هم من ابتعد عن طريقنا أم نحن من خالفهم وســلكنا طريقًا آخر. وهل هناك طريق آخر لا تمطر الســماء فيه خوفًا ولا تنزف خسارات ومشقات. نبدو وكأننا من جنى على نفسه بنفسه.

في اليوم الذي دخلنا به الأسبوع الرابع لغياب جدي في السجن، جاء سالم مرة أخرى وجلس على الحجرة أمام بيت جدي. خرجت له جدتي: تنكرت للثدي الذي أرضعك الحليب؟ جرته من يده إلى المكان في بيتها الذي كان ينام فيه في طفولته، والركن الذي اصطدم رأسه به ذات ليلة مظلمة هرب فيها من عنف والده وجاء لينام مع صديقه الخالد.. لن تستطيع نسيان هذه الليلة التي تركت أثرها بشج عميق على وجهك. لكن هذه المرة أتى ليشمت بنا، ولم يأت ليعتذر. تراجعت جدتي عن قول كل ما خطر لها وهي تنظر في عينيه. قال بصوت قرصان: دعيني أتحدث معها على انفراد.

عادت والدتي من حديثهما الانفرادي القصير إلى حيث ننتظرها وهي صامتة. لم تقل شيئًا ولم تنظر نحونا. ارتدت ملابسها، ثم اقتربت مني واحتضنتني، مسحت على خدي وقالت: سأعود يا بُني. سأعود. ثم قبلت رأس جدتي. لم تستطع كتم صراخ بكائها وهي تصافح الدكتورة فتحية. نظرت نحوي مرة أخرى بتلك النظرة التي خرقت روحي حتى اللحظة. ثم ذهبت خلف سالم. ركضت خلفها: إلى أين ستذهبين ومتى ستعودين؟! صدتني الدكتورة فتحية. يبكي الإنسان حتى يضيع صوته ولا ترق قلوب الذين بهم شهوة للسلطة.

٨

صباح اليوم التالي من مغادرة أمي مع خالي سالم إلى قريتهما خلف الجبل، كان البيت موحشًا. شيئًا ما افتقدناه إلى الأبد. جدتي لم تذهب إلى المزارع، جلست في زاويتها السفلية مقابل الباب تنظر إلى الخارج. كانت رائحة الهواء ترابية وأنا أتنفس بطريقة مثقلة إلى جوارها. ثم كنت في نافذتي المفضلة على مشهدي المعتاد. لا أعرف إن كان يجدر بي انتظار عودة أمي! فكل من غادر لا يعود. طارت حمامة من عشها المعلق على غصن شجرة أمامي يموج بها الريح، راقبتها ترتفع عاليًا حتى اختفت عن ناظري. بدا المنظر المعتاد أمامي غير مرحِب بي، ويتجه نحو العدائية.

تفاجأت برؤية جدي أمام المنزل في الأسفل. لم أره وهو يأتي من بعيد. جلس على حجر مصقول وبجواره صقراوي. تجاهلته جدتي وهي تقف أمامه، بدا وكأن مزاجها قد تعكر لعودته. هل سيصدق جدي إن أخبره أحد أنها لم تنم طيلة تلك الأيام التي قضاها في السجن. ثم جاءت راية ووالدتها. ولم يأتِ أحد من أبناء القرية ليرى جدي. من يومها أصبحت القرية بالنسبة لنا هي نحن وعائلة صقراوي. كانت لحية جدي البيضاء قد طالت وغطى شاربه فمه، وعيناه تضيقان وهما تنظران نحو الجبل. ولم يسأل عن والدتي. هل كان يعرف ما حدث؟

هبت رياح كثيفة تحمل الأتربة إلى وجوهنا، تعلق المخلفات على الأشجار، وتغلق النوافذ. اختبأنا منها في الداخل. ثم تسللت رائحة السحب إلى رئاتنا، هطل المطر بغزارة حتى المساء.

في الصباح ارتفع صوت ميكروفون المدرسة باحتفالية مفاجأة بمناسبة تعيين سالم مديرا للمدرسة. جاء كل الذين زرع في خيالهم الوعود الكاذبة. شهدتُ الحفل من سطح بيت جدي. وبعد ساعات من انتهائه صعد الصاحي عضو مجلس النواب إلى منزله. وخلفه أفراد حراسته، كان قد أرخى ربطة عنقه كثيرا، ويمسح باستمرار العرق من على جبهته. خمنت أنه عاد ليشارك سالم حفله الكبير.

لم تقطع جدتي أملها بالصاحي. انتظرت فرصتها لتتحدث معه، لا تستطيع الذهاب إليه والزوار يحجون إلى ديوانه من كل مكان. جاءت الفرصة المناسبة. أخرجت كل ما تملك من عقود فضية وأساور ذهبية في علبة صغيرة وألقتها بين يديه وهو جالس في ديوانه أسفل قنديل ضوء مريض. كنت أنظر حولي لأرى أين وضع مصباحه اليدوي الذي كان يخادعني به.

قالت جدتي: ابحث لي عن ولدي. كالعادة، لا يستطيع، فهو مثل سالم يجزم أن والدي قد مات، لكن جدتي كانت تصر بأنه لم يمت بعد. لم تقتنع بحديثه حتى وهو يقول: أين تريدينني البحث عنه، توفي مئات الآلاف من المواطنين في الحرب، امتلأت ثلاجات المستشفيات بالميتين، تم دفنهم من دون

التعرف عليهم. عدنا نحمل الخيبة، مرة أخرى. أعاد لها صيغتها لكنه لم يُعد لها خواتهما التي أعطته إياها قبل أن يصبح عضو مجلس نواب.

صارت المدرسة في عُهدة سالم. كان أول ما فعله هو طلب تغيير اسمها من "مدرسة التصحيح للبنات والبنين" إلى "مدرسة النور". في أول يوم رسمي له علَّق لوحة بالاسم الجديد، ثم جمع الطلاب والطالبات في ساحة المدرسة. وتلا قراره الجديد، الفصل بينهم.

مرت ستة أعوام على غياب والدي، وثلاث أعوام على غياب أمي.

اختبرت آخر مادة من الاختبار الوزاري للصف التاسع. لا أعرف كيف مر الوقت سريعًا بهذه الطريقة. المرة الوحيدة التي صعدت بها إلى سطح بيت جدي حين احتُفل بتنصيب سالم مديرًا للمدرسة. حتى اللحظة لازالت الإذاعة الخاصة بسالم تهذر من الميكرفون. سالم يحب الإزعاج. ويحب استعراض القوة.

خلال الفترة السابقة كان ينظم رحلات نصف سنوية للطلاب لزيارة البحر، اختار مجموعة من الطلاب وصار يدربهم كل يوم على القتال والضرب. حوَّل ساحة المدرسة إلى معسكر. يفعل كل شيء باستخدام الميكروفون العالي. في الانتخابات الرئاسية الأولى في البلد، ألصق سالم صورًا ملونة لمرشح يرتدي ربطة عنق، كتب أسفل صورته، المرشح لانتخابات الرئاسة: الرئيس... في الحقيقة لم أكمل القراءة، لم أفهم عبارة سالم الغبية، كيف

يترشح الرئيس للرئاسة! لم ترهق هذه الانتخابات سالم. كان هادئًا ولم يبحث عن أطفال جدد يمنحهم بطائق انتخابية، كبديل للأطفال الذين انتخبوا النقيب الصاحي، فهم قد تركوا المدرسة وذهبوا للعمل في السعودية. لم أعرف حينئذٍ من فاز في الانتخابات، لكني كنت أحلم أن يبني الرئيس الجديد مستشفى لكل هؤلاء النساء المريضات والبائسات.

هل يجب أن أبقى مسجونًا على السطح في هذا المنزل؟!

كنت أقف في الدكان حتى يعود جدي ببضاعته من حافلة شاجع الجديدة. أرصها على الرفوف المعدنية. أذهب لأساعد راية في استقبال المرضى. أسجل أسمائهم في قائمة الدخول، تأخذهم راية وتدخلهم إلى غرفة الكشف. وفي الأوقات التي لم يكن هناك مرضى، نتسابق إلى المكتبة بجوار غرفة الاستقبال ونلتقط الروايات والكتب التي كانت تصل صقراوي من المدينة. نبدأ بالقراءة. ندخل في عالم مختلف عن عالمنا: نبلاء، ملوك، أمراء، عربات تجرها الأحصنة، سيارات، قطارات. أصبح حلمنا أن نكتب روايات في المستقبل. لكن قبل أن ندرس الأدب لابد أن ندرس الطب، لنساعد مرضى القرى.

يأتي كل يوم مرضى كثر من كل القرى المجاورة، ومن كل الأعمار. بشر بائسون جدًا. فقراء ومنهكين. قبل أيام وبعد أن أنهينا الاختبارات وصلت مريضة مع زوجها الشاب. دخلا غرفة الاستقبال، سجلتهما في قائمة

الدخول وجلسا على الكراسي البلاستيكية. كان الزوج الشاب يرمقني بنظرات مستمرة. يسير نحو الباب ويعود، البقاء في الداخل أفضل من الجلوس في الخارج تحت أشعة الشمس الحارقة.

انفجر في وجهي فجأة. طلب مني الخروج. أين هذه الطبيبة التي تترك هذا الشاب يتعامل مع نسائنا. معظمهم شاركوه الرأي. خرجت الدكتورة فتحية من غرفتها. أخذتني إلى المكتبة، قالت: هنا مكان أفضل لك.

لكن، لسنا في منزل، نحن في عيادة. لم أنم ذلك المساء. جلست أفكر بما فعلته. لم أفعل شيئًا، ولماذا لم توضح الدكتورة فتحية! هل كانت تلك نظرتها لي أيضًا! أم لأنني قرأت تلك الرواية التي عثرت عليها بين الكتب "مدام بوفاري"!

لقد كبرت بسرعة وأصبح ممنوع عليّ البقاء بين النساء. قبل أن أنظر لنفسي في المرآة كانت راية هي مرآتي. أرى نفسي فيها. طفلة صغيرة ونحيفة، بلا ملامح، لا ترتدي الحجاب في العيادة، لا أحد يفكر أنها أنهت الصف التاسع، بينما في المدرسة ترتدي الحجاب، لكنها لا تعيده حين يسقط إلى الخلف. هل تعاني النساء مثلما نعاني نحن؟

المشهد أمامي شاحب من الأعلى. ليس بتلك النظرة التي شاهدت بها الأشجار والمزارع ومدرجات الجبل عندما وصلت القرية لأول مرة. كانت الخضرة تغطي كل شيء. وأشجار كثيفة على حافة الوادي كوَّنت غابة

كبيرة. احتطبت الأشـجار بعد غلاء مادة الغاز المنزلي، وشـحت الأمطار، صارت المزارع لا تنتج شيئًا. انشغل جدي بدكانه وسماع الأخبار من أذاعه BBC من لندن. لا يتكلم كثيرًا. يقيد في دفتره ويجرد بضـاعته القليلة، ويشتكي من ازدياد الأسعار كل يوم وتصاعد الأزمات.

لو أن صورة التقطت قبل سنوات، وأخرى التقطت الآن، ستكون الصورة القديمة ملونة، والصـورة الحديثة بالأبيض والأسـود. هل عدسـات عيوننا محتالة وتعكس لنا ما نراه عبر فلتر أرواحنا، وليسـت الصـورة الحقيقية والواقعية خارجنا!

٩

يولد الطفل بمشاعر ذكية واضحة وبداخله بذرة صنع قدره. يصرخ حين يحتاج إلى الطعام، ويبكي حين يحتاج حضن أمه. وبإرادة قوية يتعلم الحبوا والنطق بالكلمات، وحين يستطيع تبادل الفهم مع من حوله، يُسجن بأفكار بيئته. لا يفطم من الحليب فقط، يفطم من حرية التعلم والاختلاف والتعبير عن رأيه. وعندما يصير في عمري يفطم من التعامل مع الآخرين. وحين يكبر أكثر ويقول الأشياء التي لا ترغب بها السلطة، يفطم من الحرية ويعيش في السجن. الشخص الذي يملك سلطة خولها نظام المجتمع، يفرض سلطته على المتسلط عليه. هكذا فطم خالي سالم أمي منا على غير رغبتها ورغبتنا.

تفترض نظرية داروين الشهيرة أن الإنسان تطور من قرد حتى وصل إلى ما هو عليه الآن. يقول سالم ويلعن هذا الذي يسميه الملحد وهو يخبرنا عنه في طابور الصباح. ليس مهمًا من ماذا تطور الإنسان، الأهم كيف يتصرف. يقول العم صقراوي.

يتصرف سالم بكل ما يناقض فطرة الإنسان. يجمع منا نقودًا طيلة أيام الاختبارات كرشاوى للجنة الامتحانات. يدخل الأساتذة ويكتبون الإجابات على لوحة الفصل. يريد أن يكون لمدرسته سمعة كبيرة بين المدارس الأخرى. ذلك ما يحول الإنسان إلى قرد. قالت الدكتورة فتحية: لا تدعوه يسرق مستقبلكم، اكتبوا النجاح بمجهوداتكم.

ابتعادي عن راية جعلني أكتب لها رسالة حب. لم تكن تلك المشاعر موجودة من قبل حين كانت إلى جواري. سأكسر الحظر، وأنزل إلى العيادة وأسلمها الرسالة. توقفت وأنا أرى زميلاي التوأمان يسندان امرأة نحو العيادة. غبيان لم ينجوا، لازالا في ذلك الصف الذي تركتهما فيه قبل ثلاث سنوات. رغم أن أغبياء آخرين انتقلا معي لكن الإدارة تحترم غباء أبناء الناس المهمين.

خرجت راية مع أحد التوأمين ووقفا أمام الدكان. لابد أن يكون التوأم الذي شج مدير المدرسة سالم رأسه وتركه ينزف على ملابسه. اشترت راية له أيضًا عصائر. مزقت الرسالة التي في جيبي ونثرتها في أماكن عدة. لم يتوقف مجيء التوأمين، أحدهما أو كلاهما، وفي كل مرة تخرج راية وتمنحهما شيئًا، يحملانه أو يدسانه في جيوبهما.

كنت أرى راية. أتعلل بالذهاب إلى مكتبة منزلهم. نتحدث، لكن لم أسالها عن علاقتها بالتوأم.

حين صعدت راية إلى المرحلة الثانوية بدأت ملامح الأنثى تبرز من جسدها، أو أن نظرتي لها تغيرت منذ فُطمت عنها. صرت أتحاشى المشي معها. أتقدم في العودة أو أتأخر حتى لا أصادفها، ودون أي سبب محدد أفكر به.

كان وجه راية لا يزال مكشوفًا، ولم تلتزم بارتداء الأسود في تحدٍ واضح لقرارات مدير المدرسة. لم أكن أعرف أنها تتعرض لمضايقات كثيرة. كنت

أمشي خلفها لأول مرة من مسافة آمنة، ظهر لها تلاميذ يقذفونها بالحجارة من أعلى التلة: قحبة.. قحبة. احتمت خلف صخرة بجوارها. لم يتوقفوا حين رأوني قادمًا. احتميت جوارها. سوف ينزلون الآن ليروا ماذا نفعل.

لماذا لا يأتي التوأمان لحمايتك. لكنني قذفت بحجر نحو رأس أحدهم، فأبعدهم الخوف. وصلنا إلى منزل صقراوي. كانت راية لاتزال تبكي بحرقة، ثارت والدتها، ومضت ترتب أغراضها، وتقسم ألا تبقى يومًا واحدًا في القرية الملعونة. غيرت رأيها بعد قليل. وقالت سوف تنتظر إلى الصيف.

في ذلك اليوم كنت أفكر باللحظة التي احتضنت فيها راية، وغطيتها إلى جذع الصخرة، خدي على خدها، أحسست بدفئها، بعدت رأسي قليلًا، التقت عيوننا، رأيت عيناها الصافيتان، خدها المائل نحو السمرة، وشفتيها الهشتان، وشعرها الأسود الذي يتدلى من جبهتها. أحسست بإنسان آخر استيقظ داخلي.

أصبحت أتحين الأوقات لملامستها، أقرأ الأشياء التي تقرأها، أرسم لها على دفاترها مشاعري المجردة. لكنهم غادرو في الصيف إلى عدن. فندمت على كل تلك الرسائل التي لم أسلمها لها، وعدت إلى عزلة جديدة.

صعدت الجبل في أعلى القرية لأول مرة. جلست على صخرة عالية. كانت السحب تتجمع في السماء، ومطر بدأ يحاصرني من جميع الاتجاهات. كنت أحاول رؤية مدينة عدن خلف السحب. هبطت إلى الأسفل وصادف أن

توقفت حافلة شاجع. لم أتوقع أن ينزل منها العم صقراوي وعائلته، حملت الأشياء من يد راية وأوصلتها إلى المنزل. تغيرت التفاصيل داخلي، وتغيرت الحياة أمامي، كانت راية ترتدي ملابس جديدة، شعرها مستقر على كتفها أكثر من أي وقت مضى، تنز من وجنتيها قطرات عرق بكثافة جعلتها فاتنة. تخيلت رائحتها فدنوت منها متظاهرًا مساعدتها. ناولتها الدفتر الذي كتبت فيه لها، لم أسألها عن سبب عودتهم. في وقت آخر، سمعت الدكتورة فتحية تقول: لم تعد الأمور كما كانت، صارت المدينة غريبة أيضًا.

١٠

اقترب موعد الانتخابات النيابية الجديدة ولم يتغير شـيء. في كل يوم يمر كانت الحياة تبهت، والمدرجات الزراعية تتناثر ولم يستطع أحد إصلاحها. لم يُشق الطريق ولم يستكمل مشروع الماء ولم تصل الكهرباء، شحت الأمطار، ولم يعد الناس يأكلون من خيرات الأرض، نفقت الحيوانات في المراعي الجرداء، وجاع الناس، بهتت ملامحهم وملابسهم، وسرح الآلاف من أعمالهم، وغادر كل شباب القرية للعمل في السعودية.

ترشح النقيب الصاحي مرة أخرى في الانتخابات، لكن سالم لم يعلق صوره على فصول المدرسة، ولم يضع شعاره على حواف الصخور. فاجأ سالم الجميع بالحديث عن الوعود الكاذبة التي لم يقم بها الصاحي. يتحدث عن فساد السلطة، وفساد حزب السلطة.

هذه المرة لم يصدق الجميع كلام سالم، ولم يعد كل الأطفال يقبلون يده. هناك من ألقى اللوم على سالم؛ فالنقيب الصاحي لم يتحدث بشيء، ولم يأت سوى قبل الانتخابات بيومين. سالم هو من كذب. وفريق آخر برَّأ سالم من تهمة الكذب؛ فهو ليس عضو مجلس نواب حتى يستطيع جلب كل تلك المشاريع للدائرة. لكن الجميع يعرف أن الصاحي وراء تعيين سالم مديرًا للمدرسة.

جاء سلام الصاحي منذ وقت مبكر ليدير حملته الانتخابية، كانت مديرية الأمن تنحاز له، وتقف معه. وضعوا مكبرات الصوت على أطقمهم العسكرية، ويرافقونه إلى كل مكان. يوزعون وجبات يومية للناخبين الذين وعدو بالتصويت للصاحي. "هناك صعوبات كبيرة ورثتها الدولة بعد الحرب. تكلفة الحرب كانت باهضه الثمن. يقوم حزبي بمجابهتها بقوة وشجاعة. سالم وحزبه الذي ينتمي له، يثيرون القلاقل في البلاد وينشرون الفوضى ويكذبون في صحفهم ومنابرهم المختلفة. يريدون الاستحواذ على السلطة والاستئثار بها تحت مسميات كثيرة. أعدكم بأنني سوف أبدأ من الغد بمشاريع الكهرباء والمياه وسترون ذلك بأعينكم، خلافًا لما يعدكم به سالم وحزبه."

في اليوم التالي، جاءت ناقلات وألقت على جانب الطريق معدات أبراج، وكابلات الكهرباء. ولأنني صرت أفهم صورية الانتخابات وأعتبرها موسمًا للعب، كنت أركب سيارات مديرية الأمن ونذهب إلى المناطق المختلفة للاحتفال.

رأيت صورة ضخمة وملونة للصاحي مُلعقة على مبنى مديرية الأمن. كنت أحاول رؤية الزنزانة التي نام فيها جدي ثلاثة أسابيع بعد الانتخابات النيابية السابقة. أشعر بانتصار خفيف. سالم لن يستطيع حبس شخص بعد الآن. صار خصم مديرية الأمن. أنتظر اليوم الذي سوف ينام في واحدة من زنازينها. كان الصاحي يتوعد سالم إلى ما بعد الانتخابات. تهمة فساده في

المدرسة لا تحتاج إلى دليل، سوف يفصله ويعين بديلًا مساعده الغاضب ذو الأنف المفلطحة.

حصلت على بطاقة انتخابية بفضل الصاحي. كنت أعلق صوره على قميصي، وأنتظر انهيار سالم الأخير. لم يكن هذا تعبيرًا عن حب للصاحي بقدر ما هو انتقام مما فعله سالم. رغم ذلك فقد بدت لي الحياة هزيلة وقبيحة جدًا، وأنا أتشبث بجنود مديرية الأمن فوق العربة العسكرية التي تقاد بجنون في الطريق الوعرة، وتخفي بين الغبار سيارة الصاحي الحديثة. كنت أعود إلى بيت جدي وأنا غارق في غبار ملابسي. أرتمى على السرير وأغرق في نوم عميق من أثر شمس النهار التي ضربت رأسي.

توقع الفائز في الانتخابات لا يحتاج إلى تفكير وتخمين. فالقوة كلها بيد النقيب الصاحي، رغم الثقة الكبيرة التي يبديها مرشح سالم. لكنني لم أتوقع أن يستمر الاقتراع لمدة ساعتين فقط، ثم يحدث اشتباك مسلح في المركز الانتخابي، وتُهرب أطقم مديرية الأمن صناديق الاقتراع وأوراق التصويت إلى مبنى المحافظة ويعلن فوز الصاحي بدورة جديدة.

بعد أيام من حديث سالم من أن مرشحهم سوف يقدم طعنًا بنتيجة الانتخابات. غادر إلى المدينة مع عائلته. ثم أرسل خطاب استقالة إلى مكتب التربية بالمحافظة. صار يدير جمعية خيرية وتطور في ممارسة بعض النشاطات الاجتماعية.

١١

تخرجت من الثانوية العامة بنسبة تؤهلني للتقديم في كلية الطب. وتخرجت راية بنسبة عالية أيضًا. كنت أفكر بدراسة الآداب. وهي تفكر بالمجال نفسه. لكننا قررنا دراسة الأدب حين ننتهي من دراسة الطب.

حلمي أن أكتب رواية في المستقبل. أروى بها ما حدث، أدون أحزاننا وتفاصيل الأيام في مدينتنا الحزينة. لا أريد أن أموت صامتًا كالذين سبقونا من قبل. وأدخل مثلهم طي النسيان. أريد أن نكون مرئيين على الأقل. نحن أبناء هذا المكان الصامت، والبشر الحيارى الذين أكلتهم الحروب وعذبهم الجهل. أريد الكتابة لأنني لم أشعر أن لدي وطن، أو أنني أعيش في وطني. عشت مسلوبًا، وأريد أن أسترد الحياة التي سُرقت منا، أن أسترد جزءًا من طفولتي وشبابي وسط أهلي. لكنني أخاف إن كتبت يومًا ما، أن أصبح بكلماتي غريبًا من الداخل أيضًا. كنت أشعر أن هناك أكثر من سالم، وأكثر من صاحي في وطن الكلمات. سيخفون عالمي قسريًا في سجن الخوف داخلهم.

لم أنتبه كيف مر الزمن السابق بي. كنت أتصرف وكأنني نسيت أمر اختفاء والدي، وغياب والدتي. كنت أعتقد أن جدي وجدتي لا يفكران أيضًا بهما. لكنني كنت بعيدًا عنهما ولم أقترب من حزنهما.

فهمت خيبة جدي بي. حين ولدت، استقبل خبر مولدي بفرح كبير. مهد مساحة أرض بجواره، وألقى كمية من الحجارة عليها لتكون منزلي في المستقبل. كان ذلك قبل زوال إقباله على الحياة. مؤخرًا تعَوَّد الجلوس وحيدًا على ركام الحجارة القديمة تلك وهو ينظر في الأفق. انكمش وجهه، فاغرًا فمه طوال الوقت. أرى لسانه وهي تتحرك وكأنه يستعيد أحداثًا واضحة في ذاكرته. اعتقدت دائما أن جدي يجلس هناك ويراجع أخطاء حياته، أو يجتر ندمه على قرارات اتخذها في الماضي. من سوء حظ جدي أنه عمل في مدن نشطة في أفريقيا، وعمل في البحر على بواخر أجنبية، عرف العالم وعرف أنماط حياة مختلفة. كنت أفكر بأصدقاء جدي في تلك الأماكن أو الذين عمل معهم، هل تشبه ملامحهم ملامحه الآن؟ وأين يقضون حياتهم الآن وهل هم أكثر أو أقل سعادة منه؟

لو كنت مكانه لشعرت أنني في منفى بعيد. في أسوأ الأحوال لم يكن جدي يتوقع أن يؤول حال البلد إلى ما آل إليه الآن. وهذا سر تعاسته. لو أن شخصًا يعيش في بلد مستقر رأى صورة فتوغرافية لجدي الآن لحسده على هذه اللحظة. رجل شائب شعره يجلس على ركام أحجار وينظر نحو الوادي، ويتماهى مع الأفق. سيركز الغريب في الصورة ويغرق في ضوء الغروب الساحر والهدوء التام الذي لا يعكره شيء. قد يحصل صاحب الصورة على جائزة التصوير. سيقول كل من يراها إن سحرها يكمن في البساطة والتماهي مع الطبيعية التي تعيد الانتصار لروح الإنسان. لكن جدي لن يفهم شيئًا من

هذا؛ فهو يعيش غرابته وأحزانه في هذا المكان الذي شهد أسوأ ما يمكن أن يعيشه إنسان.

اقتحم شاجع المكان وجلس إلى جوار جدي، مسح على وجهه وعلى شفتيه، ثم أصدر صوتًا خفيفًا من عمقه، وشرع يتحدث دون أن يتنبه جدي لوجوده: سأقول لك شيئًا مهمًا، أظن أن سالم وراء اختفاء الخالد. حين أوصلته إلى منزله في المدينة، تحدثت معه في الطريق. قلت له: مسكين حسان لا يعرف أين والده. قال: لماذا تسألني أنا؟ اسأل عضو مجلس النواب في الحكومة، سلام الصاحي، هو ضابط في الأمن، نحن معارضة. قلت له: كيف معارضة وأنت من دعمه. قال: زمان. كانت غلطة. وأين اختك؟ قلت. قال: أنت سكير ومجنون، من أنت لتحقق معي وتسألني عن أختي. أنا أسألك لأننا أبناء مديرية واحدة. قال: أختي سترناها.

لقد خبرت الليل يا عم محسن وغطست فيه وعلمت ما يحاك في جوفه الأسود. أقسم أن سالم متورط في عملية اختفاء الخالد. كانا صديقين وقريبين من بعضهما منذ الطفولة، ثم فعل سالم ما فعل.

انضم العم صقراوي إليهما، جلس على حافة الركام بالقرب منهما، سأله شاجع: هل لاحظت شيئًا من خلاف بين الخالد وسالم؟ قال صقراوي: كان دائما يغار من شخصية الخالد، لكني لا أتخيل أن يصل به الأمر إلى هذا الحد. بعد الوحدة كان سالم يطمح إلى وزارة، لكنه كان يحتاج إلى مباركة

منه، كان رأي الخالد أن سـالم غير مؤهل لهذه المرحلة. خلال تلك الفترة بدأ سـالم بالتقلب، انقطع عنا جميعًا. ربما حصـل على وعد قلب به مزاجه. يبدو أن الصاحي وعده بمنصب، واستغله بالتبليغ على صديقه، فاستفاد من الأمر وترقى في رتبته الأمنية، وكسـب بهذا ثقة السُّـلطة، ودعمته للترشـح في مجلس النواب، وبعد فوزه مُنح سـالم منصـب مدير مدرسـة. فحول الاتجاه تدريجيًا.. لكن لا أحد يسـتطيع القول إن سـالم لم يسـتفد شـيئًا. كل الناس تتحدث عن المنزل الذي اشتراه في المدينة.

هبط الظلام، فغادر الجميع المكان.

في الصـباح التالي لعودة والدي وقبل موعد حافلة شـاجع إلى المدينة جاء صقراوي وعائلته لوداعنا. كنت قد نسيت أن صقراوي سيغادر هذا الصباح. بحث له شاجع عن شقة مناسبة، وستعمل الدكتورة فتحية في إحدى عيادات المدينة. وسيتدبر صقراوي كشكًا يبيع فيه الصحف ومواد المكتبات. تخلوا عن حياتهم لأجل حلم راية بدراسـة الطب. تنتهي أحلام الآباء حين تبدأ أحلام أبنائهم.

دمعت جدتي وهي تحضـن راية ووالدتها. أخرجت كل الدمع الذي حبسـته منذ البارحة، وربما دموع سـنوات كانت قد تحجرت في مقلتيها. أمسـك صقراوي بيدي ووضع إصبعه على صدري بطريقة تأكيدية: ستنسق لك راية في الكلية وستأتي للدراسـة والسـكن في منزلنا. انحدر ثلاثتهم نحو الأسـفل والشـمس قد بدأت تضـرب مؤخرة رؤوسـهم. يحملون حقائبهم وأغراضًـا

كثيرة. حملت كل ما في يد راية إلى الأسفل. وساعدنا المزارع الجديد الذي بدأ السكن مع عائلته في منزل صقراوي. وصعدت مرات لحمل مستلزمات العيادة والمنزل إلى حافلة شاجع.

تجولت مع والدي في مزرعة جدي والشمس قد غطت جميع الأماكن. سألني عن أمي؛ إن كانت قد سمعت بخبر عودته ولم تأت لتسلم عليه. كان قد عرف أن خالي سالم أشاع خبر موته، وأجبر أمي اليتيمة على الزواج من رجل اختاره هو لها؛ بسبب خلاف غامض بينهما، لكن والدي لم يكن يعرف أن الحال قد تغير، والنساء لا يسلمن على الرجال حتى الأقربون منهم. لقد رآهن يرتدين ملابس مختلفة.

استراح أسفل شجرة طفولته، شجرة البن التي زرعها جدي في يوم مولده، جذبني من يدي وقربني إليه، ضمني نحوه.. افتقدت أمي أكثر من أي وقت مضى، تذكرت وجودنا معًا قبل ليلة اختفائه في المكان نفسه، كانت أمي تحاول ثنيه عن السفر، لكنه كان مصرًا على العودة. وصلني إحساس أنه يتذكر ذلك أيضًا، أغمض عينيه وحرك رأسه كمن يريد أن يمحو شيئًا ما. استرخت ملامحه المتعبة، قال: كن مستعدًا.. خلال اليومين القادمين سوف نسافر إلى صنعاء.

صنعاء إذًا. كنت أريد الذهاب إلى صنعاء، معظم رجال القرية في صنعاء، الزوجات مع أزواجهن في صنعاء، مجلس النواب في صنعاء، والتلفزيون

الرسمي موقعه في صنعاء، والشوارع الكبيرة في صنعاء، مالكو السيارات الفارهة يأتون من صنعاء، والنادي الأكثر سيطرة على الدوري اليمني لكرة القدم يقع في قلبها. صنعاء لا يشقها نهر، وليست مفتوحة على ميناء. تعتمد على خشونة أيادي الرجال فيها ومن حولها في قلب المعادلات.

١٢

في صباح السفر، ارتدى والدي ملابسه القديمة، بدلة رسمية بدت واسعة عليه، ومتهدلة قليلًا، وحذاءً أسود. كان وجهه حليقًا، مع جرح خفيف بأداة الحلاقة، بدا كمعلم في المدرسة. خرجنا تحُفُّنا بَركة دعاء جدتي، انحدرنا من القرية وسط الطريق المعبدة بالأقدام، نتعثر بحجارة كبيرة وصغيرة. من الأعلى كان الضباب يغطي كل ما نراه أمامنا، ومن الأسفل نامت القرية أسفل الغيم الأبيض.

نفض شاجع غطاءه الذي يتلفع به من البرد أسفل جذع شجرة سدر، بجوار حافلته التي تنبعث منها أخبار الصباح، سلم على والدي بحرارة وارتباك مفتعل.

كان مذياع الحافلة يتحدث عن حرب صعدة الثانية، غيَّر شاجع الموجة على أغنية: "قولوا لعين الشمس ما تحماش.." كنت أتذكر الأحداث التي فاتت والدي في غيابه: انتخابات برلمانية فاز فيها الصاحي مرتين، ورئاسية أبقت على الرئيس الذي لا نعرف غيره على كرسيه إلى الأبد. فاتته أخبار حرب صعدة الأولى، واغتيال المئات وسط العاصمة صنعاء، وموت الآلاف في حروب مختلفة، تفجير المدمرة كول الأمريكية في خليج عدن، تدمير برجي التجارة العالمي، احتلال العراق وأفغانستان، موسم صنعاء عاصمة الثقافة

العربية، والكثير من الأطفال الذين شـاركوا في التصـويت في الانتخابات وكبروا وتزوجوا وتركوا زوجاتهم وذهبوا للاغتراب في دول الجوار. فاته منظر سالم وهو يطلق لحيته، ويسجن جدي ويقايض أمي، تنصيب الصاحي عضـوًا لمجلس النواب، تعين سـالم مديرًا للمدرسـة ومن ثم رئاسـة جمعية خيرية، فاته اجتماع المسلم والصاحي في صداقة وانفضاضها بعداوة. فاته ارتفاع الأسعار، وسماع المئات من الخطب في التلفاز، وعشرات الحروب القبلية، ومئات من الوعود بإصـلاح الطريق إلى القرية. لكن في الحقيقة لم يفته شيء، فقد كانت دورات العبث تتكرر وتستمر بعرض نفسها على كل الأجيال.

يستمر شاجع بدحرجة حافلته ببطء، يتحاشى وعورة الطريق والمطبات التي تحتك بأسـفلها، كانت الحافلة قد امتلأت بأشـخاص كثر. تعلقوا على جوانبها.

قضـينا نهار ذلك اليوم في ضـيافة عمي صـقراوي. ولم نكن نعرف أنه النهار الأخير الذي ستسـمح به الحياة. بدا صـقراوي أكثر اسـترخاءً، وزوجته أكثر راحة، بينما راية خرجت تسحب نومها الثقيل، شعرها مائل بخصلات ناعمة إلى الجهـة الأخرى، يغطي خـدًا متورمًـا. سـهرت بجوار التلفـاز متعـدد القنوات، من فيلم إلى آخر، من أغنيـة إلى أخري. ارتبكـت لرؤيتنـا، لكنهـا عادت أكثر بشاشة وفرحًا.

في ذلك اليوم طفتُ المدينة مع راية. أصابني ضيق وكدر، وضياع. اضطراب الحياة زحف على روحي، مباني عشوائية، تغطيها ملصقات الانتخابات القديمة، وإعلانات المدارس الخاصة والمعالجين بالطب النبوي، بؤس كبير على ملامح الناس ومظاهرهم، باعة يقطعون الشوارع، بشر وسيارات ودراجات نارية، تتحرك باختلاف وتداخل كطحالب في المياه الراكدة.

صنعاء من أول وهلة لا تختلف كثيرًا رغم شوارعها الأوسع. لكن مواكب السيارات لا تتوقف فيها. تُنحي سيارات الشرطة سيارات الإسعاف والمواطنين، لتمر مواكب: الرئيس، رئيس الحكومة الوزراء، رئاسة مجلس الشوى وأعضاء مجلس النواب، ومشايخ البلاد وحاشيتهم.

تطل نافذة الفندق الذي نزلنا فيه في مدينة صنعاء على نافورة ميدان التحرير، ومكاتب، ومطاعم، وخيول يصعد عليها الكبار والصغار لالتقاط الصور، ورجال يحملون رزمًا نقدية ويلوحون بها للمارة. كنت أفتش عن الصواريخ التي قيل إنها وقعت في قلب صنعاء. تلك الصواريخ التي كانت تلمع في السماء وقعت هنا. شاهدت مبنًى في الجانب الآخر يملأ خيالي. كان يزين أحد أغلفة الكتب المدرسية.

في اليوم الأول عاد والدي بهاتف محمول. وفي اليوم التالي استخرجت وثيقة لي. وفي يوم آخر ذهبنا إلى كلية الطب لأقدم أوراقي. كنت كالعادة أنظر من نافذة الحافلة لمحلات المدينة ومنازلها وبشرها، داخلني شعور عبثي؛

كانت حياتي مليئة منه، لكن هذا العبث الذي تحمله هذه المدينة والمدن الأخرى التي رأيتها خلال السفر كان عبثًا صادمًا، يشبه لعبة كرة القدم الأمريكية التي نراها على شاشات التلفزيون. وعند عودتنا في ذلك اليوم وقف والدي على كشك الصحف، قرأ عنوانًا رئيسيًا عن تشكيل لجنة لاستعادة المنازل المنهوبة أو تعويض ملاكها السابقين، وإعادتهم إلى وظائفهم.

وضع والدي جهاز الهاتف الجديد في يدي ونقودًا في الدُّرج، وسافر فورًا إلى عدن. وجدت نفسي أصارع الحياة في مدينة غريبة وأناس غرباء. كان المال الذي تركه لي كافيًا، لكن ليس كافيًا إلى ما لا نهاية، ولم يخبرني كيف أتصرف. انتظمت في الدراسة في قسم الصيدلة، جامعة صنعاء، تركت الفندق فقد كان اسمه ثقيلًا عليّ، وانتقلت للسكن مع زملائي الجدد.

حصل والدي على وثائق ملكية منزله في عدن، وعدني بالعودة فورًا إلى صنعاء وشراء منزل جديد بعد بيع منزلنا السابق. كان الوعد أملًا ضروريًا عشت به رغم خيبته الكبيرة. رفض الضابط المقيم في المنزل الخروج. كان والدي يحضر جلسات المحكمة بشكل مستمر مع محاميه وأنا أحضر قاعات المحاضرات. تأجل الخبر الجديد. عملت في أماكن كثيرة، مررت بجميع المهن الحرة، سافرت إلى القرية مرات عديدة، ووالدي ما زال يركض مع محاميه خلف منزله.

لم يعد للحياة أي معنى، وكل الأشياء فيها ليست ملكنا بما في ذلك شعورنا. انقطعت اتصالات والدي، وغابت أخباره، هذه المرة بلا أمل ولا إحساس إيجابي يمنحنا إياه قلب جدتي. مرت سحب كثيرة فوقنا، بعضها توقفت وأمطرت، ومعظمها غادرت إلى أماكن أخرى. ضربتنا شموس كثيرة حتى ذلك الشتاء الذي عثر به عم صقراوي على والدي ميتًا على رصيف الشارع الذي يقع فيه منزلنا. أجج الموت عاطفة الناس الذين هبوا لاستعادة المنزل بالقوة وعلى رأسهم سالم المسلم وسلام الصاحي وسلموني مفتاحه.

في الليلة الثالثة من الدفن، كان العزاء قد انفض، وعاد الناس إلى منازلهم مساءً، وأنا ما زلت جالسًا جوار مرقد والدي، أسفل شجرة طفولته. الليل ساكن من حولي ورياح مزعجة تحرك أوراق أغصان الذرة. افتقدته أكثر حين مات. من وقت لآخر كان جدي على سطح المنزل يوجه نحوي مصباحا يدويا يومض ضوؤه كالبرق.

اقتربت مني سحابة بيضاء، تكورت كبيضة دجاجة عملاقة، اخترقتها يد من داخلها، انفلقت نصفين، خرج والدي ووالدتي ممسكين ببعضهما، يرتديان أسمالًا بيضاء، مضيا سريعًا نحو طريق صاعد إلى الجبل. ذهبت خلفهما، لكنهما تلاشيا من أمامي. أمسكتني يد من جانبي وصعدت بي إلى منزل جدي.

من نافذتي بدت القرية تغرق في مياه من ضوء القمر الذي أطل الآن، ومنزل صقراوي تآكلت أطرافه كسفينة حربية من بقايا الحرب العالمية الثانية

تحترق في محيط. تهتز الدرفة الحديدية لنافذة راية محدثةً صوت حشرجة موحشة. تُبنى المنازل ليهجرها سكانها وتبقى وحيدة مستسلمة لشعور النهاية غير العادل.

أسمع أصوات احتضار المنازل القديمة وشحوب ملامحها، وما تركه الزمن على واجهاتها، وعشب الوحشة الذي يرافقها إلى النهاية الأخيرة، ستموت قريبًا كل المنازل التي بنيت بأموال ملاكها المغتربين القدامى في مدن إفريقيا النشطة، ستهاجمها مياه الأمطار من السطوح، وستتساقط الأخشاب وستندثر معها ذكريات جيل كامل، سيبحث الأبناء عن الأخشاب ويستخدمونها للمواقد، وستكون هذه الحجارة القديمة أساسات أرضية تنتصب عليها منازل جديدة.

ومن هذه النافذة رأيت مشهدًا جديدًا لم أعتد عليه، تتبعثر مجموعة من المنازل الحديثة والملونة، مضاءة بمولدات كهربائية تردد صوتًا عبثيًا جديدًا، في ذلك المكان بدأت تتشكل القرية الجديدة للمغتربين الجدد.

أصر جدي بأن أعود إلى العاصمة صنعاء، لاستكمال الدراسة، انشطرت روحي بين كل الأشياء. روحي بينهما، لمن أتركهما، خفت أن تضيع حياتي كما ضاعت الحيوات السابقة، قالت جدتي وهي تربط شعرها الأسود والأبيض المخلوط بحمرة الحناء، وقد بدت خطوط وجهها أكثر وضوحًا وعيونها أكثر عمقًا: تبصر لمستقبلك يا ابني.. أنت لن تتركنا، ستعود في

الإجازات. أتمنى أن يحييني ربي حتى أراك عريسًا. وصل شاجع في تلك اللحظة بملابس والدي وشهادة وفاته. وبعد صمت طويل، صعدت إلى غرفتي وجهزت أمتعتي للسفر.

١٣

استكملت ثلاث سنوات أخرى من الدراسة، رافقتني أيضًا الحروب والأزمات. أُجلت الانتخابات النيابية الثالثة حتى العام الذي حدثت فيه أحداث 2011، وهو العام الذي تخرَّجت فيه من الجامعة. خرجت ليلًا إلى ساحة التغيير، نصبت خيمة، وهتفت بكل أوجاعي، لم أكن أدرك أن بي لذة كبيرة للصراخ، صوتي المكبوت لم أجد له مجالًا للتنفيس عنه إلا هناك. كان الناس يصرخون ضد النظام، بينما أنا كنت أصرخ ضد الجميع: ضد أقدامي، ضد الشارع والبلاطجة، والأحزاب، وضد الرصيف نفسه.

رأيت راية في التلفزيون تهتف في ساحة أخرى وتظهر بكثافة على شاشات الأخبار. بحثت عن حسابها في الفيسبوك. كانت صورتها وهي ترتدي رداء الأطباء وتجلس على مقعد في حرم الكلية. تركت لها رسائل كثيرة، وحين يئست تجاهلت حسابي ولم أستطع العودة إليه مرة أخرى.

اتصلت لجدي في اليوم الذي حدث فيه استفتاء لتزكية رئيس البلاد الجديد. صعدت جدتي بالتلفون إلى سطح المنزل، صار صوتها واضحًا. خيرتها بين السكن في صنعاء أو عدن، رفضت العيش في المدينتين. عدن التي أضاعت الرجال، وصنعاء التي التهمتهم. قررت البقاء في منطقة وسط بين المدينتين. حتى تكون قريبة من القرية.

اتخذت قراري وأنا أتجول عصرًا في شارع الدائري وسط العاصمة صنعاء بين خيام متناثرة يقيل فيها أشخاص بهيئات مبعثرة. سوف أنزل إلى مدينة عدن وأبيع المنزل وأشترى آخر في مدينة تعز، وأبحث عن عمل، ثم أستدعي جدي وجدتي ونجتمع معًا من جديد. بدا لي الأمر حلمًا بعيد المنال رغم قربه الواقعي. لم يغير ذلك الشعور من قراري.

لم أذهب إلى الدوام في صيدلية مستشفى الحالمة صباح ذلك اليوم، على الرغم من أني لم أحصل على عطلة. جدي وجدتي سيصلان من القرية الساعة الرابعة عصرًا إلى المنزل الجديد الذي اشتريته وجهزته. سيكون أمامي بضع ساعات أنتظرهما فيها بعد عودتي من المناوبة في الصيدلية، وفي وقت مبكر من اليوم اتصل جدي: تغير الموعد ونحن في الطريق، شاجع لن يستطيع العودة لنا مرة أخرى، فهو مضطر إلى ترك الحافلة في ورشة التصليح في المدينة. كان لابد أن أنسق مع زميلي وأبقى في المنزل لاستقبالهم.

سيطر على جسدي خمول تراكم من تعب الأيام السابقة، جرني نحو نوم عميق، صحوت منه على فزع حلم مخيف، كانت ساعة الحائط تشير إلى العاشرة والنصف صباحًا، من المفترض أن يكونا قد وصلا، بناءً على تقدير الوقت الذي يستغرقه شاجع للوصول بحافلته إلى المدينة، ومسافة الطريق تحتاج من ساعتين إلى ثلاث ساعات. ما الذي حدث؟ ليس هناك مكالمات مفقودة على شاشة هاتفي. لو تعطلت الحافلة في الطريق، سيتصل بي جدي ويخبرني بالتأخير.

حاولت تجاهل الكابوس المخيف، اتصلت على هاتف جدي ثم شاجع، وما من مجيب. هل تعسر السفر لسبب ما؟! لم أفهم حينها. ساعتان إضافيتان من القلق والتوتر قلبتا كل الحماس داخلي إلى شعلة من نار تحترق. لأول مرة أشعر أن غضبي لن يستطيع الانحناء أمام جدي. شعور خفي وغامض داخلي دفعني لمغادرة المنزل نحو موقف الحافلات، لكنني وصلت إلى المستشفى، لم أدخل الصيدلية، دلفت إلى الطوارئ وجدت والدة شاجع تنتحب، انقطع صوتها وأنا أحاول رفعها من الأرض لتجلس على كرسي الانتظار. تقدم نحوي ذلك المزارع الذي يسكن منزل العم صقراوي، أعرف ما سيقوله لي وقد سمعته في الكابوس: "الله يرحمهم.. قدرهم".

تحول بركان قلقي إلى حمم تسيل بهدوء ثقيل على أرضية المكان، فقدت الشعور مرة واحدة كأن غلافًا عازلًا وضع بين أحاسيسي ونفسي، فلم أعد أميز الشعور الذي كنت فيه. جلس الرجل جواري: هل تريد أن تعرف كيف وقعت الحادثة؟! وهو في الحقيقة يريد أن يتأكد من كوني عرفت أم لا. على الفور أجبته: صعد شاجع بالحافلة قليلًا نحو القرية، في الطريق الترابي الذي أُصلح جزءًا منه قبل الانتخابات. صعد جدي وجدتي، ثم تدحرجت الحافلة ووقعت من هاوية المنعطف إلى أسفل الوادي ولم ينج أحدًا منهم. تحلق الزملاء حولي، فعلوا كل شيء وأنا جالس في مكاني بلا شعور يوصف. أُطفئت سجائر في عنقي، تلقيت صفعات على خدي، وأنا أشاهد حركة

أجســاد تذهب وتعود وتتوقف ثم تتلاشــى. اســتفقت حين أُخرجت ثلاث جثث بعربات. قَطعتُ طريقها، فتحت الأولى، كان شـاجع وقد بقي واضـحًا جزءًا من وجهه الحليق، ثم جدتي، قبَّلتها ومسـحت بأصـابعي دمًا خفيفًا ينز منها، وفرقته في باطن يدي، ثم جدي، مثل شــاجع لم أجد مكانًا لأقبله فيه، وقد تفرق وجهيهما.

عادت أجساد الثلاثة إلى القرية، حملتها سيارة إسعاف المستشفى، سرت أمامها بسيارة أحد الزملاء، توقفنا في المكان الأخير الذي تستطيع السيارات الوصول إليه، كان قد تجمع أناس كثر من أبناء القرية والقرى الأخرى الذين يتصـلون بمعرفة مع شـاجع. صـعدنا بهم بنعش الجامع الوحيد ثلاث مرات إلى القرية، كان قد حُفر قبران لهما إلى جوار والدي في أسفل شجرة طفولته، وآخر لشاجع في مزرعة والدته.

جلســت إلى جوار القبور الثلاثة في ليلة مظلمة، أبحلق في الظلام وأفكر، لم يعد هناك مصباح يدوي يُوجه نحوي، ولا شيء يخصني في القرية. انحدرت نحو الأسفل، كان أحد الزملاء ينتظرني هناك. عدت إلى المدينة وقد تنازلت عن الحلم قســرًا. يحدث أن توقظنا من الأحلام الواقعية كوابيس حقيقية خلال النوم.

١٤

بعد مرور سنتين. عاد لي الشعور تدريجيًا، زال تمامًا ذلك الغلاف بين مشاعري ونفسي، وأسدل غلاف آخر بيني وبين الانتماء للأشياء، المنزل، الراحة، فكرة العائلة. أذهب إلى مناوبتي في صيدلية المستشفى وأعود إلى المنزل، أتناول كل ما عدت به معي من طعام، وأنا أتابع التلفزيون المفتوح على نشرات الأخبار وأحوال السياسة، والمشاجرات في مؤتمر الحوار الوطني، لم أشعر بمصلحة تربط مستقبلي مع أيًا من أطياف السياسة. أريد هامش راحة أعيش به متخفيًا ومتخففًا من كل الأفكار التي تمطرنا بها الحياة. لقد مرت حروب وصراعات كثيرة، في كل مرة كانت تُعلّق مشكلة كبيرة، يتم تجاهلها لضرورات إلغاء الآخر والانفراد بالسلطة والثروة. في كل مرحلة يهب الهواة ويتعلقون على أغصان الأشجار المرنة، ويقفزون بحركات بهلوانية، تُرسلهم من مكان إلى آخر، حتى وجد الجميع نفسه في واقع يصعب حله.

كنت على وشك الانتهاء من مناوبتي في الصيدلية، الساعة الثامنة مساء، أخرجت ما في الصندوق من نقود، وبدأت الجرد والمطابقة. كان قد مر أكثر من عامين على وفاة جدي وجدتي. ولم يتوقف القلق ولم تتوقف الحروب والأزمات السياسية في البلد.

خلف الزجاج أمامي كان ضـوء أحمر من قنديل الشـارع يضـيء في الزاوية المؤدية إلى شـارع فرعي آخر، تتعارك الكلاب على مكب نفايات خارج الصـندوق. رأيت امرأة قادمة من هناك، تمشـي ببطء ثقيل، ترتدي خمارًا، كانت حافية القدمين أيضًا، وقفت أمام النافذة الصغيرة المواجهة لي.

لا أعرف ما العمل الذي تستطيع فعله، ما آلَمني أنها لم تكن لديها شـروط، فقط تريد أن تعمل مقابل غذائها وسـكنها. لا أحد يقبل التوظيف بهذه الطريقة، ملعونة هذه البلاد كم هي مذلة للضعفاء، وهؤولا الذين يتصارعون على السـلطة، تجمدت أحاسـيسـهم. لم أعرف ما يمكنني قوله لها، أحاول البحث عن كلمات مناسـبة. نظرات عينيها التي ترمقني بها تذكرني بتلك الحسرة والرجاء وقلة الحيلة التي رمقتني بها أمي وهي تغادر رضوخًا لرغبة سالم. عز عليّ تجاهلها في تلك الحالة، ستأكلها كلاب الليل إن تركتها.

لديَّ منزل يا أمي وسـأوويك فيه حتى تجدين عملًا. ترجيتها ألا ترفض. سحبتُ يدي وهي تحاول تقبيلها. كيف أستطيع إيصالها إلى المنزل دون أن ألفت انتباه أحد. صار الناس يشعرون بفراغ كبير، وما من عمل لديهم سوى مراقبة النسـاء وصـنع الإشـاعات، فلا يمكنهم تفهم وجود امرأة غريبة في منزلي حتى لو كانت كبيرة. كانت قد تبقت بضـع دقائق لانتهاء مناوبتي، سـأخرج بعد قليل.. خذي المفتاح.. انتظريني هناك وحين أخرج، اتبعيني واصعدي الحافلة التي سأستقلها.

نزلنا في وسط المدينة بالقرب من الشارع الخلفي للمنزل، تسللنا خلسة إليه بعد أن تأكدت من خلو المكان من الجيران، أشرت لها نحو غرفة ستنام فيها كنت قد جهزتها للضيوف، وجلست كعادتي أتابع نشرة الأخبار في المساحة المؤدية إلى الغرف، تائها محدقًا في اللا شيء. سهوت عن وجودها قليلًا. انفتح باب الغرفة على يميني، وقفت أمرأه شابة بملامح جمال يتخفى أسفل الضياع، مرتبكة، تخطوا إلى الأمام وتعود إلى الخلف بحركة واحدة، تتحدث وهي صامتة وتصمت وهي متحدثة. ظهرت جروح على أجزاء من يديها وذراعيها.

من تكون هذه الغريبة يا إلهي. وهل وقعت في شر نيتي السليمة. لا لن يحدث شيئًا مما أفكر فيه. ليس لي أعداء ولا أصدقاء. ذهبت نحو خزنة ملابسي، أخرجت منامتي الشتوية التي لم أستخدمها بعد، وناولتها. عادت وجلست بالقرب مني، بدت المنامة واسعة عليها، لكنها مناسبة وقد غطت شعرها بقبعة متصلة من الخلف. كانت أكثر ألفة وهي تجلس جواري، تتقاذف ببصرها في المكان.

اسمي حسان الخالد، طبيب صيدلي.. كما ترين أعيش لوحدي هنا.. لم يتبق لي أهل ليعيشوا معي.

اسمي نحلة.. مررت بتجربة نفسية سيئة.. تركت أهلي قبل سنوات.. عدت لهم.. لم أجدهم.

كان ذلك موجز تعريفي لما نعرفه ونجهله عن أنفسنا. ولم نزد عليه كلمة واحدة. واستمرينا في متابعة نشرة الأخبار عن فرض الإقامة الجبرية على رئيس البلاد في العاصمة صنعاء واستقالته من منصبه. كانت السماء قد توقفت عن مطر خفيف تشبه لي هطوله منذ دخلت المنزل. خرجت لإحضار الطعام. ابتعت حذاء وملابس لها.

أكلت بجنون، كنت أحدثها عني: حدثتها عن أكثر الآلام وجعًا في حياتي. كنت بحاجة لمن أتحدث معه، أو لمن يصغي. لم أكن أدرك قبل ذلك أن حياتي بهذا القدر من الصمت والوحدة والانعزال.. انطفأت الكهرباء فجأة. غادرنا إلى غرفنا نتحسس مكان الأبواب في الظلام.

عدت من مناوبتي في المستشفى الساعة السابعة والنصف صباحًا. وجدت المنزل يتنفس لأول مرة منذ الكارثة الأخيرة. أرضية البلاط تبرق تحت قدمي، زجاج النوافذ نظيف، وملابسي مرتبة على الأريكة، كتبي على الطاولة مرتبة فوق بعضهما، شاشة التلفزيون المغبرة صارت تلمع أيضًا. بذلت المسكينة جهدًا كبيرًا في التنظيم والتنظيف. استقرت روحي، وبدأت أشعر بنوع من الألفة نحو المكان.

ارتميت على الأريكة بثقل التعب كله، أفكر بها: من تكون؟، كلما خالجتني أفكار الشك، يوقفها نظرات الوجع الذي رمقتني به وذكرني بآخر نظرة لأمي، سأحميها، سأساعدها حتى لو لم تحك لي قصتها، حتى لو بدت

إنسانة غير صالحة، لا يجب أن نستهين بوجع الخذلان، ونشارك في ظلم إنسان بحجة الحيطة والحذر.

استيقظت بعد ست ساعات من النوم العميق، وجلست على الأريكة. كانت نحلة تخطو بحذر على رأس أصابعها وهي تمسح الجدران، ترتدي المنامة الجديدة، تطوق شعرها بشال أسود. رغمًا عن الوجع في عينيها، يبرز خيط براءة يطغى على ملامحها، ابتسامتها الخفيفة تروي وجهها الظمآن، وتظهر بياض أسنانها. لقد تعرضت هذه المرأة لخديعة ما، أو ربما كسرت حياتها ثقة كبيرة وهي تدفع الآن ثمن ذلك.

"لا ترهقي نفسك نحلة.. تحتاجين للراحة."

"أشغل رأسي عن الظنون التي تأتي بي وتذهب."

"كل شيء سيمضي."

"ليست كل الأخطاء متساوية.. هناك أخطاء لا نستطيع التخلص منها حتى بالموت."

توجهت نحو التلفاز، أقلب القنوات بلا هدف، أوقفتني على قناة موسيقية فيها عزف على آلة جيتار مرافقة لأحد الأغاني. اندمجت معها، كانت تعزف بأناملها على آلة خيالية. ربما كانت تعزف على آلة جيتار قبل أن يحدث لها هذا. لكنني لم أعرف ما الذي حدث. قد تكون تقصد تشردها.

قصتي مؤلمة.. سأحكيها لك في الوقت المناسب.. لا أستطيع نسيانها، ومن الصعب عليّ نسيانها.. ما زلت أعاني منها.. وآثارها باقية عليّ.. لا أستطيع التحدث بها الآن.. سامحني. تعرضت للخديعة.. وقعت في فخ كبير.. خسرت عائلتي.. حين وعيت.. لم أجدهم كانوا قد غادروا.. رجل له نفوذ يلاحقني.. هربت منه.. أفضل الموت على العودة إليه.. هدفي استخراج وثيقة سفر.. أسافر لأهلي الذين غادرو البلاد قبل سنوات.

كانت في حديثها تقفز على جمل وكلمات تخشى التلفظ بها، كأنها تمشي في طريق مليء بالوحل أو الشوك. أخشى ألا أتمكن من مساعدتها ونصبح معًا بحاجة للمساعدة. تتساقط مدن البلاد واحدة تلو الأخرى في الجحيم. وتستمر الحروب والأزمات في تعطيل حياتنا، وسلب قدرتنا على الحياة.

١٥

بدأت حمى الحرب تحوم حول المدينة. ومن الصعوبة معرفة اتجاه الحياة الجديدة. ذهبت لزيارة قبور أهلي، لعلها تكون الزيارة الأخيرة. تركت نحلة في المنزل ولديها ما يكفيها من طعام لثلاثة أيام. كانت القرية موحشة جدًا وكل ما فيها يدل على الخراب. ماتت والدة شاجع، نمت نباتات صغيرة أمام بيت جدي، وأخرى على السطح، رأيت مياهً تسربت من ثقب في الأعلى، لم يكن لي طاقة على إصلاح شيء. ورثت أشياء ثقيلة لا أستطيع المحافظة عليها، لابد أن تنهار في القريب العاجل.. لابد أن تفعل.

حين عدت من القرية، كنت أودع كل الأشياء والتفاصيل. وداع أخير في ذاكرتي. وحين وصلت شارع المنزل هنا، صادفت جارنا ذا اللحية الكبيرة، افتقدتك، كنت آتي لأطمئن عليك، فأجد الباب في كل مرة مغلق من الخارج، كلما أطرق عليك الباب ينطفئ ضوء المنزل.

غبت في القرية لمدة ثلاثة أيام، ولا بد من تبرير ذهابي، لابد أن أفعل حتى أكون جارًا صالحًا: "تزوجت وعدت اليوم مع زوجتي."

تظاهرت بالتعب، ودخلت المنزل، كانت نحلة جالسة تتابع الأخبار على التلفاز. وقد أصابها الإحباط. كانت تحدثني عن آخر تطورات الأحداث، نظرت إليها بطريقة أربكتها. خالجني شعور جميل كونها زوجتي، ها هي

تستقبلني وتحدثني عما حدث، كما تفعل الزوجات. بالعادة لا أعلم بالأشياء التي لم أشاهدها، لا أحد يخبرني عن شيء، ولا أحد ينتظرني هنا.

صدَّقتُ تلك اللعبة؛ بعد قليل سيأتي أحد جيراننا، سيباركون زواجنا، أنت زوجتي الآن. لا ترتبكي هذا ما حدث. الوضع لا يبشر بخير، ربما يفرون إلى هنا، أو نهرب معهم، من يدري.

لم أُفسر النظرة التي رمقتني بها. لابد أن تستبدل مظهرها العادي بمظهر عروس. اختفت خلف باب غرفتها، وغيرت المتاح. في الحقيقة لم تكن لتبدو عروسة مقنعة، وهذا ما شعرت به من نظراتهم الغريبة. الأهم أن نكتسب وجودًا شرعيًا في عالم غير شرعي. كانت اللحظة المناسبة التي دفعت نحلة للحديث.

اسمي الحقيقي ماريا حبيب، لست امرأة كبيرة، أنا من مواليد 1996. والدي هو حبيب الصحفي، صحفي مشهور. لهذا السبب طبع الاسم الثاني خلف اسمه الأول. واشتهر به في الصحافة بدلًا من غانم. والدتي هي نوال أسعد مؤسِّسة معهد المستقبل المزدهر لتدريس اللغة الإنجليزية في المدينة. اشتهرت بماما نوال.

من الطبيعي أن أتحدث اللغة الإنجليزية منذ وقت مبكر من حياتي. أتقنت العزف على آلة الجيتار قبل أن أنهي صفوفي الأولى في المدرسة. أضعت حياتي منذ مغادرة شقيقتي حنان الصحفي البلاد عام 2006 للدراسة في

ألمانيا، بعد أن تخرجت من الثانوية العامة. بعد سنتين من مغادرتها رزقنا بأخ جميل، سماه والدي مجد حبيب، وهو يشبه والدي كثيرًا.

توقفت عن الذهاب إلى المدرسة في الصف التاسع الإعدادي. في العام الذي غادرت فيه حنان تعرفت في صفي على زميلة جديدة، اسمها أمة الله، فتاة لطيفة ومنطوية. تعمقت صداقتنا مع الوقت. حاولت تعليمها العزف على آلة الجيتار. رفضت. قالت: سأقاطعك إن تحدثت معي ثانية في هذا الموضوع. تجاهلتها واستمريت بالعزف والغناء في فقرات الإذاعة المدرسية حتى منعت المديرة الجديدة هذا النشاط وأشياء أخرى. فقدتُ متعة الغناء والعزف في المدرسة، لكني لم أتوقف عن ممارسة الموسيقى في المنزل والمعهد.

تعمقت صداقتي بأمة الله، رغم اختلافنا في كل شيء تقريبًا، وتوثقت صلاتنا حتى صارت جزءًا من حياتي. حين منعها والدها من الذهاب إلى المدرسة، اضطررت اللقاء بها في الأماكن التي يسمح لها بالتواجد فيها. كانت ترافق زوجة والدها إلى التجمعات النسائية التي تحاضر فيها، وعلى هامش الفعالية أتحدث معها. كنت أحصل على عنوان اللقاء من البروشورات الإعلانية التي تُوزع في المدرسة، لذلك لم تفتني فرصة واحدة. لكنني كنت أعود إلى المنزل مرعوبة مما تقوله المحاضِرة، أضم ساقي كثيرًا، أغطي شعري حتى من والدي. تطور الأمر فصرت أنكر على والدتي لبسها،

وخروجها إلى المعهد واختلاطها بالرجال. كان يصيبني رعب من الموت، ومن العذاب الذي تلقاه النساء بعد مغادرة الحياة.

أصبت بهوس تجاه جسدي، أُغلق باب غرفتي، أتحسس المواضع التي سمعتها في المحاضرة: شعري، شفاهي، عنقي، صدري المتكور، فخذي. امتنعت عن النظر في وجوه الناس حتى أصدقاء والدي، أخاف من تلك النظرة التي يتبعها ابتسامة وأشياء أخرى تنتهي بموعد سأتخلى فيه عن عذرية جسدي الصغير. جافاني النوم لأيام وليالي، رفضت الخروج إلى المدرسة، حطمت آلة الجيتار، غطيت كل جسدي، وامتنعت من الظهور أمام الناس. جاءتني أمة الله إلى المنزل.

خلال النوم لم تتوقف الكوابيس التي أتعذب بها في النار ولا سياط الملائكة التي ينالون بها من جسدي. قالت أمة الله: لابد أنك تشاهدين التلفاز، فامتنعت عن مشاهدته ولم يتوقف شيء من عذابي. صرت أوسوس لنفسي وأتخيل ارتكاب معاصي قهرية، شككت في أمر حدث في أحد الأيام وأنا عائدة من سماع واحدة من المحاضرات، هبت رياح قوية، رفعت غطائي، فانكشف شعري وأجزاءً من صدري على الناس في الشارع. سألت عن ذلك في المحاضرة القادمة، قالت المحاضرة لابد أن تستغفري ربك وتجددي التوبة، قلت: استغفرت طيلة أسبوع كامل، قالت: افعلي بنية صالحة.

فعلت كل ما بوسعي. لم أتوقف عن البكاء من الخوف والقلق. ذات ليلة حلمت بأنني مت، تحولت إلى حبات قمح كثيرة، جاءت الغربان والتقطتني

حبة حبة، وذرتني على قمم الجبال، تجمعت ثانية، ووقعت في قبر، ثم دخل ثعبان ضخم يبتسم لي بنابه السام، طوقني حتى كسر أضلاعي، ثم بلعني، وانزلقت في جوفه الموحش. استمر حلمي هذا كثيرًا، تحولت معه إلى فتاة أخرى، لم أكن أطيق سماع نصائح والدَي، فهما آخر رجل وامرأة في العالم يحق لهما نصحي. تسايرا مع حالتي الجديدة.

نفذت نصيحة صديقتي أمة الله، ذهبت نحو المكان الذي يقدم فيه والدها المحاضرات، نظرت إليه من أحد الشقوق، رجل مبتسم بلحية حمراء ووجه مضيء، يلقي كلامه في مكان مغطى بستائر خضراء شفافة، تسقط الشمس من خلالها، فتضفي على وجهه سحرًا مخادعًا. تحدثت أمة الله مع شاب قدم إلينا، صار فيما بعد زوجها. جاء والدها وحدثته عن مشكلتي، فطلب مني المجيء إلى منزله.

في اليوم التالي صعدت، مع أمة الله، غرفته العالية في الطابق الثاني والمحرمة على كل من في المنزل. أدخلني غرفة خضراء يتصاعد منها دخان كثيف ممزوج برائحة عطرية، أصابني الدخان على الفور بدوار انهرت معه على فراش موضوع على الأرض، دخلت في خدر لذيذ قبل أن يغمى عليّ.

كنت أتحسن بعد كل جلسة في غرفة التطهير الروحي هذه، اختفت الكوابيس من نومي، هدأت روحي لكن نفسي لم تستقر. بعد زواج أمة الله، اقترح علي

الشيخ أن أبقى معه قرب سكينتي، هربت من المنزل وبقيت هناك، في الغرفة جواره، أتطهر بروحانيته كلما جاءتني الظنون. لكني عدت إلى حالة أقسى من حالتي السابقة، اكتئاب وضيق، أشعر بالغثيان من نفسي ومن كل شيء، تأذيني السحابة الدخانية العطرية. رغبت بالعودة إلى المنزل ورؤية عائلتي، لكن بعد فوات الأوان. جاءني في أحد المساءات، قال: "أنت زوجتي، وهذا عقد الزواج، وهذه بصمتك، وهذا توقيع الشهود."

حبسني معه في زنزانة الغرفة، تعرضت للضرب، هددني بكل ما يستطيع فعله، ثم عادت روحي للاستسلام للدخان العطري الذي جمد تفكيري من جديد. مرت أربع سنوات من عمري على هذه الحالة، حتى صارت غياباته كثيرة، توقف الدخان العطري عن الاشتعال، فتخلصت من كل الهواجس. استطعت الهرب بالتدلي عبر حبل من الأعلى. ذهبت أبحث عن منزلنا، كانت عائلتي قد غادرت قبل سنوات. قال البقال الذي استفسرت منه. مساكين لم يستطيعوا البقاء بعد فضيحة الهروب التي قامت به ابنتهم، كتبت عنهم الصحافة وتحدث عنهم الناس. منع الأهالي أولادهم من الدراسة في معهد والدتها، ثم أُحرق المعهد، فغادرو البلاد إلى ألمانيا.

حسرة كبيرة ذرفتها في كل الشوارع، تهت حافية من مكان إلى آخر في هم وغم وحزن، أغلقت في وجهي كل الأبواب وانهمرت كل الآلام، حتى وصلت إليك وأنت خلف زجاج صيدلية المستشفى.

أريدك أن تســامحني لأنني لم أحكِ لك قصــتي، ولم أعترف لك باســمي الحقيقي من أول مرة. كانت كذبة دفعها الخوف. هذا ســر يبقى بيننا، إن حدث لي مكروه لا تنسى أن تخبر عائلتي بما حدث لي.

١٦

ما هذا الذي يحدث الآن؟ ما التوقيت؟ ساعة الحائط متوقفة.

استيقظت قبل قليل على انفجارات ضخمة لا أعرف مكانها. كنت اليوم قد رأيت راية صقراوي على رصيف كلية الآدب. لم أشاهد الكلية، لكنني كنت هناك على الرصيف ومتأكد أن الكلية كانت خلف السور.

لا زلت أنا وماريا تحت سقف منزل واحد. لا نفهم كيف ستتطور الأمور. ما زلت تائها ولم تستقر حياتي، وهي هاربة من شخص قذر، وتريد الوصول لأهلها. مشكلتها سوف تتمدد. إن استمرت الحرب سيفقد الآلاف أهاليهم، ستنضم نحلة- إن لم تمت أصلًا- إلى قافلة الآلاف من الناس الذين سيبحثون عن خبز ومأوى وهم في طريقهم للبحث عن أقربائهم.

١٧

انحدر مؤشـر سـاعة الحائط نحو الغُروب. خَطت راية صـقراوي في ذلك المسـاء المخيف إلىّ الشُـرفة، تَبحث عن مَجال شَـبكة الاتصـالات، أخفت عينيها في مواجهة نُور الشـمس الغاربة، تَمدُّ هاتِفها السـيّار، تُحركه أفقيًا كجهاز الكشـف عَن الألغام. تَنفسـت ارتياحًا إذ رأت والدها يَصـعد الدرج الثعباني الطويل نحو المّنزل.

قَبل قليل، سقطت قذائف هاون على الحي، اهتزت نوافذ شُّـقة المبنى الذي تُقِيم فيه. بَصـقت راية رشـفة القهوة التي كانت على وشّـك ابتلاعها على الكِتاب الذي تقرأه، انتفضـت سـابقة خوفها إلى الغُرفة المُجاورة حيث والدتها، ومِن ثم حاولت الاتصال بِوالدها.

اليوم هو يوم راحتِها مِن المناوبة في المُسْـتَشْـفَّى الجُمهوري، غَابت والدّتها أيضًـا عَنِ الدوام في العيادة بسـببِ الخوف الذي امتدّ إلى مُحيطها. والدها يبقى صـباحًا كالعادة يقرأ في المنزل ويدخن بعد أنّ أزالت البلدية كُشـك الصـحف والكتب الخاص به. قادها حلمها إلى كلية الآداب في المدينة، كانت قد حققت رغبتها الأساسية بالحصـول على شـهادة الطب البشـري، وتُريد العثور على حلمها الخاص بدراسة الأدب.

تفاجأت باختفاء الكُلية من مكانها الشـهير. كَورت يديها في جيبيها وهي تَمُر بخطوات بطيئة على الرصيف المحاذي للمكان، تتحاشي أغصان الأشجار

التي تمدّ أذرُعها الكثيرة من خلال فراغات القوائم الحديدية، تدوس بقايا أوراق جافة متراكمة على الأرض، ونباتات مداسة وأقلام مشققة وعلب بلاستيكية متناثرة داستها أقدام العابرين، وزجاجات كحول فارغة وبعضها مُحطمة. بدا المنظر محطما للروح وهي ترى أطفالًا يعبرون عُراة جوارها، وأمهات عشرينيات غارقات في العجز. انحنت لتناول كِتاب مرمي على الأرض، مَثني على نفسه وقد تصلبت أوراقه في كُتلة واحدة، فتحته بكَلتا يدّيها بقوة، لّم تتبين منه شيئًا، رمت به جانبًا، واستمرت في طريقها.

التقت عينيها بعيني حسان الخالد. بعد عشر سنوات من توازي حياتيهما، أبْدَيا دهشة غريبة لبعضهما، أقل من تلك التي نحصل عليها حين نتذكر فجأة وفي اللحظة الأخيرة مكان شيء بحثنا عنه كثيرا. لقاءً يُشبه الوداع، رغم اتفاقهما على اللقاء في يوم ومكان آخرين.

فَتَحت باب الشقة لوالدها. كانت قد استبقت وصوله وانتظرته على الباب. يصل إليها صوت قدميه ولهاثه صاعدًا الدرج، رَمى بجسده نحو الداخل، يحاول إيقاف ثورة أنفاسه التي أججها القلق. طَلب من ابنته إغْلاَق باب الشُرفة التي يلهو بها الريح. وجد المدينة قد اختفت أسفل دخان كثيف على مرأى الجزء المُتبقي من الشمس، يختلط مع أصْوات ضجيج الخوف في الخارج.

هذا المكان يغبطهم زائرهم عليه. يطل على منظر بانورامي جميل يَعبر أحياء وسط المدينة، ويُظهر القلعة وجزءًا جميلًا من الجبل إلى قمته. رغم هذا

فهي لم تشعر قط بجمال هذ المشهد. كانت تعتقد أنّ شُرفتها تطل على بشر غير مهمين في نظر بعضهم والسُّلطة ونساء مُعذبات ومبانٍ باهتة وجبل يترنح من هول ما يَرى ومؤسسات معبأة بكل تناقضات الحياة وفسادها، ما تنفك عن إفراز غازات الرداءة، تنتظرُ من يتمادى في إذكاء النار لتنفجر في وجوه الجميع.

سحبت باب الألمنيوم وراءها على المشهد وهي تُفكر بصواب خيالها الذي يميل نحو التشاؤم.

رغم تشاؤمها الذي بلغ ذروته في الفترة الأخيرة، لم تكن تتوقع أنّ خيالات البؤس أعمق من المُلامس والمرئي، وأنّ القاع الذي تخشى السقوط إليه يمكن أنّ يتحول إلى سماء لا تُطال بعد أن نلامسه بأقدامنا. شعرت بهذا بعد أن جَمعت في شنطة صغيرة ما يُمكن النجاة به من أغراض في مثل هذه الأحوال المباغتة التي خَبِرتها في حياتها.

جلسوا ثلاثتهم هي ووالدها ووالدتها في صالة المنزل الصغيرة المحصنة، وقد ارتدو ملابسهم وأحذيتهم، جاهزين للحظة إخلاء المكان لأحلام السلاح. كانت أبواب الغُرف مغلقة مِن حولهم، هدوء تخالطه الأنفاس المتصاعدة، تقطعه تكات الساعة الحائطية التي بدأت العد التنازلي لانفجار قُنبلة مَوْقُوتة. لا حيلة لهم، صوتهم ليس مهمًا الآن ولم يكن من قبل. لا يُمكنهم فعل شيء سوى الاستسلام. يتحاورون بأعينهم، ربما كانوا

يتساءلون إلى أين سنذهب؟ يتخيل كل واحد منهم: "كيف سيعيش إن فقد الآخر؟" بينما راية كانت قد تجاوزت أشياء كثيرة إلى سؤال أكبر من الخوف: "متى سنعود يا تُرى؟!"

عادت زخات من النار الثقيل تُدوي في أرجاء المكان من اتجاهين، انفجارات قوية تهز البناء. نهضوا جميعًا يديرون بسرعة مفتاح الباب يمينًا، ينزلون درج المبنى، يتعثرون بآخرين، يَرْمُون أقدامهم في الدرج الطويل. كان غصن راية قد امتلأ، من ينظر لها من الخلف وهي تتدحرج الآن سيحاول اشتمام عطرها وسيجزم في قرارة نفسه أنها شابة ناضجة، وتحمل ثقة كبيرة مزروعة بالتجارب. تكدَّس اللحم في جسد صقراوي وصار جسده كتلة واحدة، فيما زوجته تبدو بصحة ملائمة لامرأة في الخمسين من عمرها. لو انزلق أحدهم أو دُفع من الخلف ستكون العواقب وخيمة علّى صحته.

انعطف صقراوي بطريقة مفاجئة نحو منزل مكون من طابقين. قرع على الباب بقوة. رفض سالم المسلّم استقبالهم. لم تقترح فتحية كيالي عتابًا لزوجها، وهم يعبرون الزقاق الطويل نحو وسط المدينة، وهي من خبِرت سالم ومواقفه السابقة. الوضع لا يحتمل الآن. يتدافعون وسط شعب هلع، كبار السن يستندون على جدران البيوت، أمهات يهربن بأولادهن، أطفال خائفين، وفتيات وفتيان حفاة يحاولون اللّحاق بأهاليهم.

كانت راية تسير خلفهما، تحمل حقيبة الأشياء المهمة التي صارت فيما بعد حقيبة النزوح، غارقة في التفكير بهذا العبث. كانت قد تَخَيَّلتهُ وتنبأت به

مرات عديدة، تُقارن بين خيالها السابق وما يحدث الآن. في واقع الحال لم تكن تعرف بالضبط ما الذي تفكر فيه في ظل ضوضاء ما يحدث، كانت خارج المشهد في أماكن بدت غريبة عنها حتى وصلّوا إلى فندق متجهم في وسط المدينة. كانت واجهته الداكنة تسبب لها النعاس فيما مضى.

صعدَ عامل الفندق الدرج أمامهم وهو يحمل شمعتان بكلا يدّيه يَشق بهما الظلام، وهي تُحاول اللّحاق بخطواته السريعة. فَتح غرفة في الدور الثالث. كانوا ثلاثتهم خلفه. وضع شمعة تتوهج أمام المرآة وأخرى في الحمام قبل أن تنتهي مهمته. رائحة السرير الذي يجلسون عليه الآن تُشبه رائحة تعفن الملابس المبللة، المحرومة من الشمس. يحاولون التقاط أنفاسهم وسط رائحة رطوبة المنازل المهملة.

وضعت راية رأسها بين يديها تستعيد مشهد لا تعرف إن كان حقيقيًا أو تم اختراعه من وحي الأحداث. تجاوزت قبل قليل طفلًا يبدو في السابعة من عمره، محشور بين خزان مياه وحائط قرب باب مَنزل مُغلق بمزلاج من الخارج. يَمد يده لها، ويستجديها بملامحه.

أفزعتهم ضربة قوية. بعد ضربات عدة تبين أنه الباب. اتجه صقراوي نحو مصدر الصوت ومن خلفه زوجته، ثم ابنته وهي تحمل الحقيبة بيدها. كان الطارق شاب لا يتعدى الثامنة عشر من العمر تقريبًا، يتمنطق سلاحه بطريقة جافة، حماسه الطاغي يجعله غير مكترث لشيء، سَرَدَ كلامًا كثيرًا، فُهم منه الأهم وهو مغادرة الفندق سريعًا، بحجة أن المكان يشكل خطرًا كبيرًا

عليهم، وكلمات أخرى ضلت معانيها الطريق إلى المسامع بين خده المنفوخ وأنفاسه اللاهثة وذُعر تصوراتهم المُربَكة. تركوا الشمعة تحترق خلفهم حتى التلاشي.

أثناء خروجهم، تجاوزوا مجموعة مُسلحة مستنفرة خلف رجل يبدو من هيئته بأنّه قريب من السلاح. دخلّت العائلة إلى منفذ شارع فرعي طويل، يرمون بأقدامهم في حُفر غيرَ مرئية وسط الظلام، يتقاطع بهم الصغار والكبار من هنا وهناك. يستمرون خلف المجموعة التي تُشكّل عددًا أكبر من النازحين.

كانت راية تحملق في جميع الاتجاهات كأنها الوحيدة التي تسافر بها الحرب، تهيّأ لها الولد الصغير، يظهر من الأزقة على جنبات المكان، يمد يده نحوها، يستجديها. ثم دوَّى صوته الباكي في رأسها، بذلك المنظر القاسي، ودائمًا الدموع تسيلُ على خده، ولعاب لسانه متصل على طرفيّ فمه. تجاوز الشعور حدود قدرتها على التجاهل، أفلّتت الحقيبة من يدّها وارتمت خلفهما: "لن أستمر معكما".

طلب منها والداها النهوض. وصلها خوفهما فطاوعتهما. لم يكن لديها حافزًا للهرب. تعرف مسبقًا من تجربة أول حرب حدثت في طفولتها، إنّ مغادرة المنزل في هذه الظروف للنجاة بالجسد ليس نجاة من وطأة الحياة التي تصنعها المآلات اللاحقة.

استمروا في التقدم مع الهاربين، يتمدّد الأسفلت ويلقي نفسه من جديد أمام أقدامهم، وهي تصارع سيطرة ذلك الطفل، تصارع تردد قرارها واضطراب إنسانيتها، ولم تنفك عن لوم نفسها وتحميلها المسئولية، رغم إيمانها القوي بعدم أهمية النجاة من الموت كما بررته سابقًا.

كانت المجموعة الكبيرة قد ابتعدت عنهم بخطوات كثيرة. رأوهم يغيبون أسفل هيكل مبنى قديم توقفت حياته قبل أن يكتمل، مغروس كشجرة في حوض ترابي. تردد صقراوي قليلًا قبل أنّ ينحدر خلفهم، تفحص المكان، ثم قرر النزول، تزحلقوا ثلاثتهم من بين الأشجار الصغيرة على مخلفات القمامة حتى وصلوا باب المخزن الأرضي، ألقوا السلام قبل أن يقدح من في الداخل الولاعات ليتبينوا وجوه القادمين الجدد. دخلوا واستقروا في زاوية على اليمين في الجهة المعاكسة للآخرين.

مسحت راية على رأسها ووجهها لتزيل شبكة العنكبوت. هاجمتها ثانية ملامح الطفل وأصوات بكائه. تلوم نفسها على عدم استجابتها، على الأقل كانت تستطيع حضنه والتخفيف من خوفه. ثم داخَلها شعور متفائل. من يدري لعل الطفل بين يديّ والديه الآن، في مكان آمن. لكن استمراره في مهاجمتها من الداخل جعلها تدور حول نفسها دورات غير معدودة.

داست على مادة لينة، وصلّت رائحة مؤذية إلى أنفها، صرّخت وهي تلعن كُل ما في الحياة. قدح والدها ضوء الولاعة الفاتر نحوها. كانت تهذي

بكلمات غير مفهومة وهي تحمل حذاءها على طرف لوح خشبي وتقذف به إلى الخارج. عادت بلا توزان منتعلة فردة حذاء واحدة، ارتفع صوت والدتها تُحذرها من المسامير الصدئة والمخلفات الحادة المتناثرة على الأرض، جلست جوارهما تَقدح النار وتطفئها بإيقاع قلق، وسط خليط من رائحة الأخشاب الرطبة والأمونيا.

مُلئ المكان تدريجيًا مع استمرار تدفق العائلات. اقتعدوا أرضية المخزن كاملة، سجنوا أجساد بعضهم وارتفع ضجيج لا يتوقف. من يريد الذهاب نحو الباب لابد أنّ يدّوس على الآخرين. أنانية البعض لا تسمح بإفساح الطريق ليّمر من يرغب بالخروج. يطلّقون سيلًا من اللعنات والشتائم إنّ مر أحد بجوارهم واحتك بأجسادهم قليلًا.

"تركتم لهم منازلكم الفسيحة في الأعلى بقوة الخوف المُسلط عليكم.. لكنكم ترفضون هنا منح مساحة قدم لمرور الآخرين."

ألصقت راية جسدها على زوائد الجدار بين والديها، تنظر نحو فضاء الظلام في المحزن الأرضي، تتابع ضوء الولاعات في المكان، وأضواء الهواتف المحدودة، وهمسات وأحاديث غير محددة الاتجاهات، وأناس يحاولون التحدث بالهاتف، وأشخاص يطلقون أحكامًا قدرية، وضحكات تتبع نكات بذيئة، ثم يعودون إلى الصمت بعد اهتزاز الانفجارات. يَكسرُ الهدوء في بعض الأحيان انفجار طفل رضيع بالبكاء، أو تبرمُ آباء بصوت مرتفع من أسئلة أبنائهم اللحوحة.

أضـاءت انفجارات قريبة المكان من فتحات عِلوّية مسـتطيلة، كَشَـفت عن كمية الأشخاص الذين اختبأوا فيه، رجال ونساء وأطفال. بدأت راية التفكير بشـكـل جـدي في قتلهم وتخليصـهم من حسـابـات الحرب والنزوح واحتمالات البقاء. ليس هناك معنى لحياة بشر تتحكم بها أصبع على الزناد.

بعدّ ليلة قاسية في البدروم الأرضي الذي لن تفكر حتى الشياطين بالاقتراب منه، وعلى شُعاع الشمس الأول المُتسرب بوهن من شقوق النوافذ المتاخمة لمستوى الشارع الترابي، بدت الأجساد مُتعّبة، والأطفال نائمون في أحضان ذويهم، بدأت النسـاء بتغطية شَـعرهن، كَشـف النور عن رجال بملابسـهم الداخلية، وجوه ورؤوس نصـف حليقة، أجسـاد نُسـيت في الجحيم ليلة واحدة، ستكون بروفة لجحيم قادم أشد.

أعادت راية غطاء رأسـها الذي تزحلق إلى الخلف، كانت قد غرقت في نوم ثقيل هبط عليها في سـاعة الفجر بعد هدوء حدة الانفجارات. يشـبه شـعورًا قديمًا في نهار موسـم الحصـاد مع والدها، استيقظا ظهرًا أسفل شـجرة سـدر وقد انحسـرت مسـاحة الظل إلى ما دون وجهيهما، وتضـخم ثقل جسـديهما أسفل وطأة غُربة حارة وثقيلة لم يستطيعا الفكاك منها.

اسـتيقظت فزعة على رؤية الطفل الخائف يمد لها يده، يناجيها ببكاء حاد، امتدت يده إلى عنقها، حرك صراخها معظم من في المكان. في انتظار الصباح لم تسمع صوت الآذان يصدح من مكبرات أصوات جوامع المدينة. تخيلّت

أنّ المؤذنين هُنا لا يجرؤون على الخروج، أو لعلهم صـعدوا على المآذن وبيد كل واحد منهم رشاشًا يصوبه نحو مئذنة شقيقة، دون سبب محدد.

كانت راية هي أول من تجاوز الأجساد الملقاة وهي تحرك نفسها بصعوبة وخلفها والديها. توقفوا أمام مجموعة من المسلحين منبطحين خلف متارس مستحدثة، تتبعثر حولهم قذائف مدفعية. ومن ميكرفون سيارة الشرطة في جانب حائط كبير، يُعلن للهاربين إخلاء المكان سريعًا خوفًا على سلامتهم. المواجهات مرشحة للتجدد وستكون أعنف هذه المرة. خيبة كبيرة على وجوه الذين اعتقدوا ليلًا إنه بمقدورهم العودة إلى منازلهم في الصباح، وقد أقنعوا أنفسهم أن لا شيء أسوأ من هذا سوف يحدث لهم، حتى أن بعضهم كان يستمتع ويضحك ويعيش اللحظة باعتبارها تجربة مهمة يثري بها حياته ويحدث عنها الآخرين بمزيد من الإضافات. تدافعوا خارجين إلى الشارع، وسلكوا اتجاهًا عشوائيًا سيرًا على الأقدام، بين هياكل سيارات محترقة ومنازل يتصاعد من نوافذها دخان الحرائق الكثيف.

رغم إنّ الجميع يتجهون نحو غرب المدينة، لكنهم تفرقوا مجموعات، يبحثون عن حافلات للإيجار تحملّهم إلى أبعد مكان عن مسرح المواجهات. عبروا مكانًا ضيقًا بجوار حافلة مدرسية لم تطالها ألسنة اللّهب، تجاهلوا شخصًا من مجموعتهم انقض عليها بخفة وحاولّ فتحها، تجاوزوه بمسافة بسيطة حتى وجدوه وراءهم يرفع الزمور.

خلف السائق تمامًا ركبت راية ووالديها إلى جوارها. اكتظت الحافلة بالجالسين والواقفين، أجساد متراصة لصق بعضها. قال السائق وهو يتجه نحو غرب المدينة إنّ الحرب جعلته يعود إلى مهنته القديمة، لص سيارات، بعد وعد بالتوبة سابق قطعه لوالدته. لأول مرة يكتشف بأنّها مهنة نبيلة، ولو أن أمه على قيد الحياة لتحول خجلها من تصرفاته إلى فخر. الفارق بين النظرتين هي حرب تفرض أهمية اللصوص.

"الحرب هي مهنة اللصوص. فيها يتم تبييضهم على غرار غسيل الأموال، فيصبحون أرقام صعبة بعد ذلك." صححت راية كلامها حتى لا تثير حنق السائق "أقصد لصوص السلطة وليس اللصوص المعتزلين من المواطنين العاديين."

تجاوزت الحافلة رجالًا مسلحين ونقاط تفتيش وعربات عسكرية، كلّما سئلوا عن المنطقة التي يقصدونها، يكتشفون أنهم لم يفكروا بذلك. لم تشعر راية ولا لمرة واحدة بحاجتها للالتفات إلى الخلف، ولا بالحماس للابتعاد عن مسرح المواجهات، ولم تتنفس ارتياحًا كما فعل الآخرون.

بدأوا يبحثون عن طعام يلقمون به البطون الخاوية. توقفت الحافلة أمام دكان على الطريق الأسفلتي. نزل الجميع ولم يجدوا سوى أطعمة تسالي مغلفة، اشتروها بما توفر لديهم من أشياء ذو قيمة، يستلذون بها وهم تحت أشعة شمس تغلي الرؤوس. نساء وسط رجال يأكلن بشرود من أسفل غطاء

وجوههن، وأخريات أدرن ظهورهن للرجال، ربما أن الحرب قد كسرت مغاليق سجونهن المنزلية.

فاجأتهم قذيفة وقعت على مقربة منهم، تدافع الجميع إلى الحافلة، بشكل عشوائي. جلست راية بجوار رجل غريب لا تعرفه. عاودها الطفل وبكاءه ويده التي تمتد إليها وذنب تجاهلها له، بينما الحافلة تشق طريقها الغامض، تحمل نحو المجهول بشرًا معلقين بحياتهم ومنازلهم التي خلفوها، مربوطين بتفاصيل روتين يومهم السابق. لم يتأكدوا من إحكام مفاتيح أسطوانات الغاز وإغلاق النوافذ، نسوا حمل مستنداتهم المهمة.. وحليب أطفالهم. تخلص قارب الصياد من رباقه ليلًا وتاه في البحر.

١٨

انحرفت الحافلة قرب المدينة الصغيرة في مركز الريف الغربي الذي قصدوه، تحاشيًا لزحمة سيارات تمتد خلف بعضها في خط طويل لا تُرى نهايته. ثم سلكت طريقًا فرعيًا غير معبد وسط منطقة لا يمكن الإمساك بمعالم واضحة لها ووصفها. جميعهم يجهلون المكان الذي سيتوقفون فيه، اللص السائق لا يدري أيضًا، بدا الأمر وكأنها لعبة وعليه أن يكملها، مادام يملك بشرًا يذعنون له، حاله في ذلك مثل لصوص المتن ولصوص الهامش. دخلت الحافلة طريقًا وعرًا. نامت راية على وقع ارتجاج الإطارات وهي تتقاذف بأفكارها الغامضة كالحنطة بين يدي الجدات. استيقظت بعد بضع ساعات على صوت والدها. كانت الحافلة قد توقفت بعد نفاد وقودها، كما نفدت كل الوسائل التي تحرك أحلام الحياة إلى الأمام.

نزل الجميع يمطون أجسادهم المثقلة، وينظرون من الأعلى نحو منطقة نائية. جلسوا على الأرض بعجز تام عن التفكير، تتحرك راية وسطهم، تنظر يمنة ويسرة بانفعال. قفزت ضحكة هستيرية طويلة وعالية من صدرها، جعلتها تمسك على بطنها وهي تتلوى عاجزة تحت سطوتها المباغتة، ظن النازحون أنها جنت، فيما هي وجدت المصير الذي هم فيه أكثر سرعة وخيال من خيالها الذي أصبح يتنبأ بالأحداث القادمة. تذكرت تلك اللحظة

حين شعرت أنها لمست القاع الذي تخاف منه، وأصبح سماءً، لكنها لم تكن تدرك ماهية الوضع أسفل السماء: بشر بلا وجهة في منطقة مهجورة.. تحيط بهم قرى غارقة في الصمت.

كانت الاشتباكات قد امتدت باتجاه الطريق المؤدي إلى القرية، لذا لم يكن ممكنًا العودة إليها هذه المرة، ثم إن الذاكرة مثخنة بالجراح هناك، والخيار المتاح أن ينزحوا مع الجميع، أينما اتجهت الكتلة الأكبر من الناس يتجهون خلفها.

فهمت الآن إحساس والدها في نزوحهم الأول بعد تدمير منزلهم في الحرب التي عرفتها في طفولتها. تاريخ الحروب يكرر نفسه، مع اختلاف بعض التفاصيل التي تضعنا في منطقة الإيهام بين التضحية الوطنية والتضحية المقدسة، والتضحية من أجل البقاء في المنزل. تثق بمعرفتها التفاصيل التي أوصلتهم إلى هذا المكان، تحتشد في ذهنها كل الأحداث التي كانت تقرأها في الصحف المعروضة في كشك والدها، حتى لو لم تحدث سوى على الورق، فضجيجها يكفي أن يوصل كل هذه العائلات إلى هنا. قطع ذلك الشعور ضحكتها الطويلة العالية كصوت سالم في ميكرفون مدرسة النور.

جالت بنظرها في القرى المحيطة ودُورها القديمة. دُمِّرت البيوت على ركام ذكريات وكفاح وقصص منسية وأسرار منازل، علاقة تاريخية سيئة مع أحلام السلام، البسطاء فيها هم الجانب المقهور دائمًا. فهي تدرك من

تجربة جدها أن هذه الدُّور لم تُبنَ من خيرات البلاد واستقرارها السياسي والاجتماعي، بل بنيت بثمن الغربة والعرق تحت سماء شرق أفريقيا، استنفدت جل أعمارهم هناك. حتى لو كانت مبانٍ عالية فمصيرها إلى الزوال؛ لأنها بنيت منفصلة وجدانًا وهوية عن الإحساس بالانتماء الفعلي للمكان.

انحدر الجميع نحو مدرسة تقع في الأسفل، تطوقها الجبال من جميع الاتجاهات. انزلقوا من بين صخور مختلفة الأحجام، وقطع أحجار حادة، ونباتات شوكية، ومدرجات زراعية تقاوم الشحوب. وصل معظمهم بلا أحذية. فقدت راية فردة الحذاء الأخرى، مضت تسير حافية وسط السرب، تضع قدميها على الحجارة المسطحة بحذر.. وعندما استوت على الوادي، طفقت تقفز من حجرة إلى أخرى متحاشية الأشواك والحصى المدببة، مع هذا لم تنجح. وصل الجميع منهكين؛ أظافر مكسورة، ملابس مقطعة، أياد مكشوطة الجلد؛ من محاولات مقاومة العثرات الكثيرة.

دخلوا من باب سور المدرسة المعوج إلى ساحة مليئة ببقايا حجارة البناء، وسارية لم يبق من ألوان العلم أعلاها سوى قطعة قماش صغيرة من اللون الأسود تُرى بصعوبة. فصول المدرسة مطعونة الأبواب، مخلوعة النوافذ، يتناثر زجاجها على أرضية الفصول، فيما قطع أحجار ملساء تستقر بنظام على البلاط المرقش. كان التلاميذ يستخدمونها كمقاعد.

وصـل مدير المدرسـة، وأصـدر أوامره التنظيمية قبل أن يذهب إلى الأبد. أبقى النسـاء والأطفال في الداخل وأخرج الرجال. كانت راية تنظر من نافذة الفصـل جوار السـلم إلى المنظر الخارجي. رأت الحافلة التي توقفت في الأعلى، والقرى المحيطة التي بدت من الأسفل أقل غرابة ووحشة، تسطع الشمس على لاقطات قنوات التلفزيون البيضاء، وتتلاشى على نوافذ مطلية بالألوان الشـاحبة. الأشـجار الخضـراء أمام البيوت مثيرة، حتى أنها كادت تشم رائحتهن مع نسمة هواء منعشة وصلت على استحياء وسط جو حار.

تداخل في رأسـها اسـتغاثة الطفل ورغبتها القوية في قتل الجميع، خُطتها هي جمع الأجسـاد ومراكمتها في فصـل واحد ثم تفجيره. سـتريحهم مما ينتظرهم، ستستخدم روحها كبش فداء تثبت به السلطة الجديدة- المجهولة بعد- التي يدخل المكان ضـمن مجال سـيطرتها، وتتخلص هي أيضًـا من عبء الحياة. لكن دافعًا مجهولًا جعلها تغادر الفصـل وتجتاز البوابة التي وضـع حارسًـا عليها- يتبع مدير المدرسـة- إلى المزارع المجاورة، وجدت الرجال نائمين في ظلال أشجار السدر، أيقظتهم بصرخة عالية، نهضوا على إثرها بذعر الغرباء في الجحيم.

"هل تنتظرون موت أطفالكم جوعًا حتى تظهر مسـؤولياتكم في حفر قبور لهم؟"

عادت تسير أسفل أشعة شمس تصفع وجنتيها، تمسح عرقًا كثيفًا من على وجهها وتقذف به إلى الأرض، تصـطدم بالحجارة المدببة بقدميها فتنكأ

جراحها، تخلف دماء متقطعة على مواضع قدميها. أزاحت حارس بوابة السور بيد واحدة. أخرست كلامه الذي حاول اعتراضها به.

وضعت النساء ما يملكن من نقود في يدها وذهبت بها إلى الرجال. كانوا خلف السور يتشاورون فيما بينهم. ثم خرجن إلى المزارع المجاورة بعد أن لففن أقدامهن العارية بمطاط دواليب السيارات الحافظة للهواء، وعدن بقبضات من نباتات الأشجار، قمن ببناء جزء من النوافذ بالحجارة المتوفرة، وشرعن بكنس الفصول من الزجاج، وضعن المخلفات على قطع أخشاب صغيرة وجدت في المكان، ونُثرت إلى الخارج.

بعد ساعات عاد الرجال يحملون حليبًا ريفيًا محفوظًا بقناني المشروبات الغازية، وخبز تنور الحطب، وما وجدوه من بسكويت ومعلبات، وكميات من الأرز والسكر وصفائح مياه في الدكان الوحيد للقرى المعلقة، وثلاثة قدور كبيرة تبرعت بهم سيدة وحيدة مسنة. كانت النساء قد نظفن الساحة من مخلفات البناء، أزلن النباتات الشوكية من أرضيتها، قلعن الحجارة الناتئة. صارت الساحة ممهدة، لركض الأطفال عليها. بينما راية تراقب كل شيء من على القاعدة الإسمنتية الدائرية أسفل سارية العلم. لفت نظرها أرقام تؤرخ لتاريخ بناء المدرسة، مكتوبة على حجر مصقول في الواجهة: "بنيت هذه المدرسة في العام ١٩٩٠ على نفقة الحجة جمالة بنت عبد الواحد".

أخرجت الهاتف من حقيبتها اليدوية المعلقة على جانبها، تريد الاتصال بشخص ما. دارت حول سارية العلم تعيد الاتصال مرات ومرات. خلال

ذلك رأت امرأة تدخل أسفل السلم المؤدي إلى سطح المدرسة يغطي جسدها خمار أسود، ومن المكان ذاته خرجت امرأة شابة ترتدي منامة واسعة، تظهر مقدمة رأسها المغطى نصفه بقبعة متصلة بقميصها، جميلة وحزينة، رغم أثر جرح غائر طرف شفتيها يمتد إلى الأسفل قليلًا. جلستا في اللحظة نفسها جوار بعضهما على القاعدة الدائرية أسفل السارية، كانت هي الأخرى تحرك هاتفها السيار في يدها بقلق بحثًا عن شبكة الاتصال.

"أحاول الاتصال بشخص عزيز عليّ لكنه لا يُجيب". قالت راية.

أطلقت الشابة زفرة في الهواء.

"أحاول الاتصال بزوجي.. كان في عمله حين وقعت قذائف على منزلنا.. قال لي اهربي مع الناس وسألحق بك. هربت مع من هرب حتى وصلنا إلى هنا".

ربتت راية على كتف الشابة، وضمتها إليها "سيحدث ما يحدث يا حبيبتي". في تلك اللحظة كانت تخفي بداخلها فكرة قتلها حتى تريحها من الاحتمالات. ستضمها إليها، ثم تطبق ذراعها حول عنقها وتخلصها من البؤس. صارت أكثر قناعة بوجوب قتل الأشخاص غير القادرين على تحمل الحياة الجديدة.

أوقدت المواقد قرب الباب على جانب حائط السور الجنوبي، الأطفال يلعبون بمرح، يعيشون المتاح، يركضون بأجساد مستقيمة ومرنة، بينما

يتصــرف الرجـال بطرق مختلفـة في أداء المهمـة نفســهـا التي يقومون بهـا جماعيًا، البعض بثقة كبيرة وتركيز، وبعضهم يتصرفون بخوف وتردد وكأنهم يعيشــون تحت رقيب خارجي دائم لا مهنة له ســوى توجيه اللوم والتقريع، يحملون ثقلًا كبير داخلهم، ثقل التناقضات والخوف وعدم الفهم.

بادرت راية بتقديم نفسها للمرأة الشابة:

- راية صقراوي.
- نحلة.. نحلة العامر.

١٩

ثلاث ساعات كاملة يستغرق وقت تجهيز طعام ينقصه الكثير من الأشياء، بصل، ملح، بهارات. والآن حين انتهوا من العمل تذكروا أنه ينقصهم الصحون والملاعق. ذهب بعض من الرجال إلى القرية القريبة، عادوا بمجموعة من المواعين على أمل أن يعيدوها في الغد، صحون مختلفة الأحجام والأشكال. وزعت صحنًا لكل عائلة. ينتظمون في طابور للحصول على مغرفتين من الرز مع قطعة من الخبز.

حنق متصاعد بسبب نكهة ومذاق غير مستساغين.

"تخيلوا وكأنكم في معسكرات تؤدون فترة التجنيد الإلزامية".

رُدَّ عليه بصوت واحد في اللحظة نفسها:

"لا نستطيع تخيل وجودنا في مكان وهمي".

قالت امرأة لزوجها وهو يلتهم الأرز.

"الآن تأكل أُرزًا ذائبًا في الماء وبلا طعم، وحين كان يزيد الملح قليلًا في البيت تلقي القدر إلى سلة القمامة".

كانت نحلة لاتزال جالسة أسفل سارية العلم، لم تتقدم للمطالبة بحصتها؛ فهي ليست ضمن عائلة. استدعتها راية إلى مائدتهم. قالت الدكتور فتحية:

"من هذه اللحظة أنت بنتي وراية أختك". غمســت يدها في قدر تبحث عن حبات الرز لتأكلها. ظهرت جروح يدها على ضــوء الموقد الذي يمتد في لهب يشع وينحسر. عادت راية بكمية أخرى، صارت فيما بعد ضمن حصة العائلة اليومية.

"رحم الله حبيب الصحفي". قال صقراوي.

"لماذا تذكرته الآن؟!" قالت فتحية كيالي.

"كان يدرك ما لم نكن ندركه نحن.. توقع انزلاق البلاد نحو هذا الوضــع في وقت كان الجميع يظن أنه يهذي.. صــحفي بارع وعقل مستنير.. لفقوا له فضيحة ابنته وأجبروه على الخروج من البلاد.."

"الله وحده يعلم أين البنت الآن.. لعلهم اغتصبوها أو قتلوها!"

اختنقت نحلة بالطعام. قرب صــقراوي وابنته الماء إلى فمها لتشــرب. من المؤكد أنها ابتلعت الماء المعبأ من البئر مع شوائب جيرية.

تجلس كل عائلة في مساحات متفرقة من الساحة وسط ظلام بدأ قبل قليل. قرب السارية جلست عائلة صقراوي المكونة من رجل وثلاث نساء. كوَّنوا بأجسادهم حلقة شبه دائرية، بالترتيب صقراوي، فتحية، راية، نحلة العامر.

"هل تعرف حبيب الصحفي؟" سألت نحلة.

"كان صديقي أيام الدراسة الجامعية، درسنا معًا في القاهرة، تخرجنا في منتصف الثمانينيات، وبعد حرب صيف ٩٤، انقطع تواصلنا إلا

من لقاءات متباعدة، لكنني واصلت قراءة بعض كتاباته. قرأت أنهم أغلقوا صحيفته، وتحول إلى الكتابة في صحف أخرى، سُجن أكثر من مرة، وحوكم بناء على قانون الصحف والمطبوعات بتهمة الإساءة إلى رأس البلاد. سمعت أنه أصبح بعد ذلك يعيش من معهد اللغات الذي كانت تملكه زوجته، وبعد غياب ابنته لم يستطع الصمود أكثر، نجا بنفسه وغادر إلى أوربا."

أخفت نحلة دموعها بطرف كمها الطويل، وراية تقبض يدها. أقبل في تلك اللحظة اللص القديم الذي اقتادهم بحافلة مسروقة إلى هنا. ومن البوابة تحدث للجميع:

"لم يفتقدني أحد منكم وقت الطعام".

"أبقينا لك حصتك."

"بحثنا عنك ولم نجدك."

"سامحنا نسينا اسمك."

"ينسيك الموت."

"أُص.. بلا كذب".

رد اللص عليهم. ثم سار، بجسم تضخم كثيرًا، نحو الأطفال الذين يبنون لعبتهم. راقبهم وهم يبنون من الطين مدنًا جميلة وبيوتًا رائعة، في كل غرفها

شاشة تلفزيون، مطابخ فيها الكثير من الملح وماء نظيف للشرب، وحمامات مضاءة، وماء دافئ للاغتسال، وشوارع يحميها الجنود، وملاهي واسعة يلعبون بها، حلوى وذكرى ميلاد وهدايا وكهرباء لا تنطفي، ومدارس تعلمهم الغناء كما في برامج التلفزيون، يشترون كل الألعاب عدا لعبة الحرب، ويشاهدون مسلسلات الأطفال التي تروقهم...

"أستطيع سرقة كل شيء وتحقيق أحلامكم." قال اللص.

ثم جلس على ركبتيه مزاحمًا حلقة لعبهم، مندهشين يضحكون من غرابة سلوكه، كأنه القى نكتة للتو.

"أنا لا أمزح.. أستطيع فعلًا.."

وقف على قدميه بصعوبة وهم مستمرون بالضحك من أعماقهم بلا توقف وقد خربوا لعبتهم بأقدامهم. أثار وقوفه أصوات احتكاك علب معدنية. وبدأ يخرج أشياءً من تحت ملابسه. أخرج حلوى من جيوبه ونثرها أمامهم، أخرسهم المنظر، ومضوا يلتقطون ويخبؤون أسفل قمصانهم. ثم نثر معلبات الحليب الجاف والسائل، وبسكوتات من أسفل بطنه. حين خرجت أول علبة سجائر التقطها سريعًا من بين أيديهم. كان لايزال هناك أشياء مخبأة في ساقيه، سجائر، شوكلاتة، مقصات، مشط، كريم شعر.

"عمو الدكان.. عمو اللص.. عمو اللص.."

"لست لصًا.."

"عييب، هذا عمو". قالت معظم الأمهات لأولادهن بطرق مختلفة.

لكنه واصل: "أنا سااارق.. سااارق فقط.. بدون لص ولا عمو."

أجبر الأطفال على تجاوز نصائح أمهاتهم والعودة إلى الضحك، لكن هذه المرة نعتوه بـ "عمو الدكان".

أفسح صقراوي للسارق الواقف بالقرب منه للجلوس إلى جانبه والانضمام إلى دائرة عائلته، وهي الدائرة الوحيدة التي يستطيع الانضمام إليها. ذلك ليس مؤشرًا بأن العائلة سوف تزداد سارقًا أو لصًا؛ ثمة مكان شاغر لقاتل وليس للص، رغم أن اللص هو قاتل، والقاتل هو لص، الفرق بينهما هو أداة الجريمة والشيء الذي يسلبه من الناس.

"هم أطفال لم يستوعبوا بعد الفرق بين السارق واللص. السارق لا يسرق لنفسه فقط، والأهم أنه ليس لديه ارتباطات حكومية ولا حزبية ولا دينية. بينما اللص يسرق لنفسه فقط ولديه جميع الارتباطات السابقة بالإضافة إلى ولائه العابر للحدود. فهو أكثر جبنًا في داخله مما يتخيل أي إنسان رغم أنه محمي بالقبيلة والدولة والانتماء الديني والسياسي والولاء الخارجي."

فتح عمو الدكان علبة سجائر، التقط واحدة بطرفي أسنانه، مج دخانها ونفثه بكثافة من أنفه وفمه. رمي السجائر وسط الدائرة، ثم وضع الولاعة في يد صقراوي، بدوره أشعل واحدة وأعطاها لزوجته، وثانية وأعطاها لراية،

وثالثة وأعطاها لنحلة. تقاطعت نظرة نحلة مع نظرة عمو الدكان ورسمت على وجهيهما ومضة ارتباك، أنهاها صقراوي بتلويحة من يده وهو يشعل لنفسه السيجارة الرابعة.

"على الأقل الدخان يدفئ قليلًا." قال صقراوي بينما لوحت راية نحوه بتلقائية وهي تنفخ الدخان من فمها. همت بقول شيء، لكنها احتفظت به داخلها "لعل الدخان يسكت صوت الطفل وبكاءه ونظراته في رأسي وهو يطالب بحقه في بناء أحلامه الطينية، وحصته من الحلوى التي يلتهمها الأطفال الآن."

رفعت راية صقراوي رأسها عن حجر مصقول مغطى بجذوع مورقة وأعشاب. أيقظتها جلبة نساء في الساحة سرعان ما خبت، وعاد صوت الطفل يعمل في تجويف رأسها.

حين تمددت في وقت متأخر من الليل على البلاط المرقط مع بضع نساء أخريات وثلاثة أطفال، شعرت بقسوة الأرضية الصلبة على جسدها، أراحت جبينها على يدها. كادت أسراب البعوض تحملها وتقذف بها إلى الخارج. لم تتحسر على ضياع سريرها في المنزل ومخدتها الناعمة.

في مثل هذه الأوقات قبل النوم، كانت تفكر بالمؤجر، مالك المنزل، وصوته المؤذي في سلم البناية، والماء الذي توقف في الحنفية، تفكر بملابس الصباح التي لم تكوها بعد والكهرباء التي حتمًا ستعود وهي نائمة، كما أن

روحها لم تكن تسكن ليلًا، كانت تشعر بأنه سوف يأتي يوم يضطرون فيه للبحث عن شقة أخرى. كانت تمنع كل ما يؤدي إلى تآلفها مع المكان، لكن أرضية فصول المدرسة قاسية. بدأت يدها تتخدر، وفخذها يتصلب من تمددها غير المريح، وهناك خطر إضافي من انهيار النافذة شبه المبنية بحجارة كان يجلس عليها تلاميذ لم يعودوا هنا؛ لقد هجروا المدرسة وذهبوا لإطعام أهاليهم.

تربعت جالسة وسط الظلام، مُسندة ظهرها إلى الحائط وهي تمسح ملابسها التي مُلئت بغبار ناعم. والدتها نائمة جوارها تضع رأسها على حقيبة النزوح، والأطفال حولها نائمون في أحضان الأمهات، جوقة شخير بصوت مرتفع تصعد من الجميع، تتداخل مع أصوات حشرات الليل. استقامت ونظرت من النافذة، كان الظلام يتكثف في الخارج.

تجاوزت النائمين نحو الباب، سمعت صوت مذياع يأتي من سطح المدرسة، أحست بالأمان وقد عاد بها إلى أوقات قديمة في طفولتها. نظرت بتركيز نحو الساحة، تحاول تمييز الرجال المتفرقين هناك بما توفره المواقد من ضوء.

"راية أنا هنا." قال والدّها.

"أحتاج الخروج من المدرسة".

"هيا يا رايتي."

تقدمت أمامه خارج السور إلى أن وصلت إلى خلف مجموعة أشجار كثيفة. أدار والدها وجهه إلى الجهة الأخرى وهو يحمل جذعًا من لهب المواقد. رفعت عباءتها، أنزلت بنطلونها وجلست القرفصاء لتفرغ ما بداخلها. امتزج خجلها من والدها مع خوف وتوتر داخلي ووضعية صعبة.. سرت في جسدها قشعريرة، شعرت كأنها تغطس في بِركة باردة.

بدا لها المذياع أكثر صفاءً في لحظات هبوب رياح خفيفة تحمل كلمات شبه مفهومة. سرت طاقة إيجابية بداخلها على استحياء. لسنا منفصلين عن العالم إلى هذا الحد، لازالت محطات الراديو تصل إلينا من بعيد. استقامت رافعة بنطالها وهي تستمع إلى حديث لم تفهم منه سوى جملة: "التغيرات المناخية العالمية".

قطف لها والدها قبضة من نباتات، وحمل لها حجرة ملساء، "ضعيهما أسفل خدك ونامي." نامت حتى أيقظتها جلبة النساء.

سارت تتبع مصدر الأصوات من بين الحفر التي تحوي أجساد الرجال، وهي تزيل الأوراق الملتصقة على خدودها، وتتحسس الأشكال التي نُحتت على وجهها. عباءتها السوداء مبقعة كأنها استيقظت من أسفل الرماد. كان الرجال أكثر حظًا، تمددوا داخل حفر مستطيلة على هيئة قبور كانوا قد حفروها لهذا الغرض، ناموا داخلها، إلى جوار مواقد تصطاد الحشرات.

وصلت إلى مكان تواجد نساء متحلقات حول امرأة في المساحة الخلفية بين المدرسة والسور. مددت راية ووالدتها المرأةَ على حشائش متيبسة في انتظار

الماء المغلي على الموقد، ومستلزمات أخرى وفرها عمو الدكان.. لُفَّ المولود بعباءة أمه، ضمَّته إلى حضنها، فاختنقت متلازمة الطفل الذي لا يبارح خيالها.

من باب السور دلفت امرأة- لا تبدو هاربة- تتوكأ على عصا. "أين النازحات؟" تصلبت راية في مواجهتها، وقعت كلمة "النازحات" عليها غريبة وثقيلة وهي تسمعها لأول مرة. عَبَرَ خيالها صُورٌ حية- شاهدتها في التلفاز- لموت نازحين سوريين في عراء البرد. موت أطفال جوع في مخيمات، مجموعة نازحين قرب خيام تستبيح كاميرات المراسلين لحظات ضعفهم.

تقدم والد الطفل نحوها، شاب في بداية عمره، يحدق بعيونه الحزينة من خلف نظارة حمراء سميكة تنغرز طرفيها بين شعره المجعد. هو مولودهم الأول. لا أحد يعرف إن كانت الزينة التي جهزَّاها لاستقبال الطفل لازالت سليمة في شقة أحلامهما، أو قد احترقت: فراشات تحط على بتلات ورد، وطيور تحلق في سماء زرقاء، وعرائس بيضاء تطوق حروف اسم يوسف باللغة الإنجليزية.

"أمسك به جيدًا من أسفل رأسه"، قالت راية.

"هذا أصغر نازح في العالم". أضافت وسارت ببلوزتها الطويلة وبنطلونها الأزرق نحو أسفل السلم.

كانت نحلة قد فرشت كل ما توفر من مخلفات دفاتر وكتب مدرسية، طوقتهم بمجموعة من الحجارة، حتى أصبح مكان نومها أشبه بعش من ورق. وجدتها تسبح في الفراغ. مدّت إليها يدها، وسارتا نحو سارية العلم. تمنت راية لو تريق دم هذه المرأة وتريحها من طيبة ونوايا حسنة تستشعرها في داخلها.

حاولت راية ونحلة إجراء مكالمة عبر المحمول، صعدتا السلم إلى سطح المدرسة. لم تستطيعا التقاط إشارة. منفى مطوق بجبال، يخفي قرى محنطة، وشمسًا غريبة. نازحون مبعثرون في الساحة لم يستوعبوا وجودهم بعد. تعرف راية أن في لحظات الخوف يندفع الإنسان إلى الأمام مبتعدًا عما يهدد حياته، تاركًا كل شيء خلفه، مفضلًا الحفاظ على حياته على كل ما يملك. ثم يبدأ بالاستيعاب مفضلًا الموت على الحياة التي تقهقر إليها.

تتفهم شعور النزوح لدى الآباء. يأتي كصفعة مفاجئة، وركلة بالقدم أمام الزوجة والأطفال. يُعذب الأب بالعجز وقلة الحيلة. يفقد رويدًا صورة الأب الخارق، والسد المنيع للعائلة أمام أطفاله. يفقد الصفات التي يستقيم بها عمود التقدير الذاتي. يقل احترام الناس له، تتراجع أحلامه، وتذبل كرامته.

من جوار مذياع عمو الدكان على حافة سطح المدرسة تُرى ثلاث فتيات يدخلن وبأيدهن ملابس وأغطية ذهبن بها نحو أم "نازح".

تبعتهن فتاة أخرى تحمل جفنة بين يديها.

من الجهة الأخرى مدت المرأة العجوز بالجفنة للأم، أجبرتها على الأكل. ونساء يمهدن مكانًا لها وللمولود في ظل السور بعيدًا عن الرجال، وفتاة تفرد ملابسًا وتنتقي الأصلح منها للاستخدام.

ومن قرب ساحة العلم، كانت مجموعة من النساء يخرجن من حمامات المدرسة أحجارًا تراكمت داخلها. تصل فتيات من البئر القريب بصفائح المياه، فيما عمو الدكان يغادر الساحة إلى الخارج.

٢٠

يصـــل كل يوم نازحون جدد من مناطق مختلفة، يحملون أخبار الحرب في الأرياف والمدن. لم تترك الأخبار التي يحملونها أملًا بالعودة قريبًا. ازداد عدد العائلات النازحة التي تتمدد على أرضـية الفصـول. كلّف ذلك النسـاء أخراصهن وأساورهن اللاتي هربن بها.

في السـاحة ازدادت عدد القبور التي يحفرها الأحياء للنوم داخلها، فتحات مستطيلة تنتظم في صفوف وأعمدة، بينها مسافات للمرور.

جلسـت راية قبالة والدها على حافة القبر الذي ينام فيه وأقدامهما تلتقي في الأسـفل، تنظر في وجهه المصـبغ، وعيونه المحمرة، وهو يرمي بجسـده المنهك إلى الخلف على يديه. أخفضت نظرها نحو الموضع الذي يضع فيه والدها رأسه خلال النوم. كم من المرات استنشق تراب الأرض حين يغلبه النعاس، وكم من المرات يسـتيقظ على أثرها ليلًا يتخذ هذه الوضـعية من الجلوس بعد تنفسه هواءً مخلوطًا بالأتربة. بصق صقراوي سخامًا سائلًا على يده وتشبث بالأرض مرة أخرى.

خطر لراية أن تقتل والدها لتخليصـه من الحال الذي هو عليه والمآل الذي يمكن أن يصـل إليه. تؤرقها تلك الصـدمة التي تبدو ظاهرة على وجهه، لطالما حماها تشاؤمها من ذلك. راحت تتخيل الواقع الذي هم عليه والذي سيصير سماءً لقاع أشد وطأة.

وهي تحاول مقاومة أفكارها التي خالطها خيال الطفل ذاك، تحدثت بعكس ما تفكر به:

"بابا.. أغسل لك ملابسك؟"

كانت تعرف أن هذا التوقيت ليس مناسبًا لغسل الملابس. الأجساد تتعرض للبرد في الليل ولا يمكن لأبيها البقاء بسترة داخلية.

تلمست نعومة التربة بيدها، ورفعت قدمها اليمني على فخذها الأيسر، خلعت الأربطة المطاطية السوداء التي تلف بها قدمها كحذاء، فعلت مع الأخرى. كومتهما إلى جوارها. مسحت على جلدها الذي بدا مبيضًا خاليًا من الدماء، وقد طبعت خطوطًا عميقة على ظاهرها. تصعد من جسدها رائحة مؤذية.

٢١

قدِم نازحٌ جديد مع عائلته قبل سواد الليل، رأسه مربوط بشال يلفه على نصف وجهه، يتقدم امرأتان وأربع فتيات. ذهب مباشرة نحو الرجال قرب مواقد القدور، كان عمو الدكان يتحدث معه وهو يحرك الرز في القدر. ثم ناوله قنينة مائه الخاص، دلقها الوافد الجديد إلى بطنه كاملة.

واصلت النساء إلى الفصل الأخير، بينما ارتمى هو على الأرض في مكانه. عرفه صقراوي.

"سالم المُسلّم هنا! هذه الحرب سوف تخرج الجميع من منازلهم."

"سالم لا يستقر في مكان مجهول، لديه عادات أمنية وخبرات مادية راكمها في حياته، يملك الكثير من الوقاحة التي يعتبرها الآخرون قوة شخصية وذكاء، يعرف متى يقفز من السفينة التي توشك على الغرق، ولديه مواهب تحجز له مكانة في أي سفينة يركبها: جبهة، حزب، تيار، مذهب..." حدث صقراوي نفسه وهو ينظر نحو سالم الذي أخذ يتجول في الجزء المحاذي للساحة، متلصصًا نحو الفصول.

كانت راية تنظر إليه أيضًا وهو يقترب منهم، وشريطًا سينمائيًا يعمل في خيالها، يعود إلى ما قبل عشرين سنة. كانت أول مرة رأته فيها، سمعته يخبر أخته أن زوجها قد مات، وسيعود لأخذها معه. حدثت حسان بما سمعته يومها. كان عملًا طفوليًا. بعد أن حمل حسان نفسه واختفى، مضت تبحث عنه ولم تجده. حدثت أبيها بما فعلته. أدركت خطأها وصعدت باكية إلى غرفتها. حين نزلت إلى العيادة وجدت حسان هناك كأن شيئًا لم يحدث.

اقترب سالم منهم. أظهر مفاجأة مفتعلة أمامهم. أضفى عليها ابتسامة رياء لا تتجاوز مساحة أسنانه البيضاء. سالم لا يُريد أن يظهر بمظهر الضعف، يريد أن يتصدر أي حدث، ويكون في المقدمة، في الأفراح والعزاء وفي إيذاء الآخرين أيضًا. لم يتعود أن يكون كسائر الناس ويناله نصيب من المآسي والأزمات. هو غُراب الساحل وحوت اليابسة.

"أعتذر عن ذلك اليوم.. لم يكن الوضع مناسبًا." قال سالم.

تدافعت أنفاس الشر داخل راية وهي تنظر نحوه، وقد اختلط في ذهنها مشاهد أفعاله التي تعرفها. نار تستعر داخلها وهي تحاكي خياليًا الطريقة التي ستقتله بها، تقفز من خلفه شادة رقبته بالمطاط الأسود حتى ينهار جسد الطاغية ويسترخي بضعف، فاغرًا فمه وقد تهدل لسانه وجحظت عيناه. تجاوز مكان تواجدهم فندمت على تفويت هذه الفرصة. لكنها لن تدع فرصة أخرى تفلت منها.

تقابلا مرة أخرى، كانت العائلة تتناول العشـــاء المعتاد، وأقدامهم تلامس القبر الذي ينام صقراوي فيه، أقبل سالم نحوهم.

"ما الذي جاء به الآن يا أبي؟"

"من هو؟" قالت نحلة.

زمجرت راية بصوت لا شك أنه وصل سالم.

"الشيطاااان."

كان وعاء الأرز قد وقع من يد نحلة عند أقدام العائلة، رفعته ســريعًا بيدها، وتراجعت إلى الخلف وهي تحرك مرفقها على مرفق راية، فاتحة فمها على حبات لم تستطع مضغها.

كانت بلا شك تفكر في شكل الشيطان.. يبدو أنها قد رأته سابقًا وأخافها.

أخرجت ما تبقى من طعام في فمها، لكن ذلك الذي في البلعوم لم يشـــأ أن يهبط أو يصعد، فطفقت تسعل بقوة حتى هدأت.

"يبدو أنني جئت في لحظة غير مناسبة أخي صقراوي."

"هذا ما يحدث حين يأتي الشيطان." قال عمو الدكان.

"لا.. تفضل." قال صقراوي.

كانت المســكينة تحاول الانكماش بين راية وأمها. تتلاشــي إلى الخلف، كأنها تتهيأ للهرب. أمســكتها راية وقربتها. نظرت في ملامحها التي لا تُفســر على ضـوء المواقد الجانبية المتسـلل من بين ثنايا أجسـاد النازحين، شـردت

راية في منظر ظل الأشـخاص الذي يرسـمه الضـوء على جدران المدرسـة أمامها، تتحرك أجسـادهم جالسـة قائمة وهابطة. بدا النازحون على الحفر التابوتية كمقبرة استيقظ أمواتها الآن بشكل جماعي، وبدأوا يشاهدون فيلم الظل على الواجهة المدرسية، كانت اللحظة قد حسمت رمزيتها في رأسها.

"هذا وضع الجميع، قدم ثابتة في القبر، ويد عاجزة خارجه."

عادت من شرودها حين حرك عمو الدكان شعاع مصباح قوي إلى عينيها، وقع الضوء على عيني نحلة أيضًا.

"ماذا تفعل هذه الشيطانة هنا أخي صقراوي؟"

"احترم نفسك يا سالم، تأتي إلى هنا وتغلط على عائلتي."

"حين أكون في منزلك قل هذا الكلام."

"ما زلت كما أنت يا سـالم.. لم تتعلم الدرس.. لن تتغير... ألم تفكر أين صـارت الأشـياء التي ظللت تسـعى وراءها؟ خسـرت أهلك.. خسـرت نفسـك.. وخسـرنا معك أيضًـا.. أين هو الخالد الآن.. أين والداه.. أين أختك.. أين ابن أختك؟!"

"لا دخل لك بأختي يا صـقراوي.. أعرف لماذا تسـأل عنها.. لا تدعني أحرجك أمام ابنتك.. ستندم على كلامك."

انقض سالم على نحلة، وجرها من رأسها.

"تعالي يا قحبة الملحدين.. كم ستهربين مني؟"

استقام عمو الدكان بخفة ودفع سالم، أوقعه في قبر جوارهم. نهض ببطء ونحلة ترتجف في حضن راية:

"لا تخافي نحلة.. نحن نعرفه.. شيطان."

رُسم على وجه سالم ابتسامة نصر أنسته الوقوع في مهانة الحفرة.

"اسمها نحلة! لماذا لم تخبركم باسمها الحقيقي؟"

تجمع النازحون حولهم، وبدأ صوت سالم يرتفع:

"أنتم شهود على ما فعلوا بي.. وكيف رماني وجه الهر هذا إلى الحفرة.. لم يحترم شيبتي..."

"أخبرهم ما الذي فعلته قبل قليل وإلا دفنتك في حفرتك."

"رأيتم وسمعتم كيف هددني.. أنا لم أفعل شيئًا سوى تقديم النصيحة.. أعرف هذه البنت جيدًا.. سلوكها منحرف.. تتواجد معكم باسم غير حقيقي."

"قل لهم أنها قحبة أيضًا،" قالت راية.

"لا.. لن أقول أنا هذه الكلمة."

حالَ النازحون بين سالم وعمو الدكان، كان الأخير على وشك القفز نحوه وتهشيم رأسه بمصباحه اليدوي السميك.

اتجه سالم وعائلته نحو باب السور. قال مبررًا:

"لا يشرفني البقاء في مكان يدافع الناس فيه عن القحاب."

بقيت نحلة في حضـــن راية ترتجف، والدكتورة فتحية تســـد فمها في حالة اندهاش، فيما صقراوي يحك شعر رأسه، وعمو الدكان يخرج نصل سكين من جيبه ويغرسها في التربة.

"أح.. تا.. جها." قالت نحلة.

"خذيها."

كانت نظرات العائلة تعترض على ما فعله عمو الدكان.

"الشيطان لا أمان له."

"هل تعرفه؟" استفسر عمو الدكان.

"من زمان." قال صقراوي.

تدخلت راية:

"بابا.. سؤال خطر على بالي الآن."

"قولي."

"أهو السبب وراء اختفاء الخالد؟"

"وارد جدًا يا ابنتي.. لكنه في كل الحالات مستغل."

"كيف؟"

"ستعرفين مع الأيام."

(....)

أخرج عمو الدكان محفظة جلدية من أسفل قميصه، وهوى إلى القبر يفتحها عند أسفل أقدامهم، استعرض بكلا يديه الأوراق النقدية التي أخرجها منها: ريال يمني، ريال سعودي، درهم إماراتي، ريال قطري، ريال عماني، دولار أمريكي. ذكر أسماء العملات بتمرس صرافيّ العملات. ودسها بخفة في جيب نحلة: "احتفظي بها لنفسك."

"محفظة من هذه يا ابني؟"

"محفظة الشيطان يا عم صقراوي."

"متى فعلتها عمو الدكان؟!"

"سر موهبتي يا راية."

استخرج الهويات منها وراح يقلبها بين يديه: بطاقة صراف آلي. بطاقة صراف ثانية. بطاقة صراف ثالثة. بطاقة شخصية. بطاقة عضو في الجيش. بطاقة انتساب إلى الشرطة. بطاقة عمل في مكتب التربية والتعليم. كرت التداوي بالأعشاب. بطاقة قيادي. بطاقة خطيب وإمام جامع. بطاقة عضوية في الحزب الاشتراكي. بطاقة عضوية في حزب التجمع اليمني للإصلاح.

بطاقة عضــوية أنصــار الله. بطاقة عضــوية حزب التنظيم الناصــري. بطاقة عضوية حزب المؤتمر الشعبي. بطاقة شيخ قبلي. بطاقة نسب شريف..

ســار عمو الدكان نحو أقرب موقد.. رمي فيه بطاقات الأحزاب وبطاقات الانتساب العسكرية.

"تتقاعد الأحزاب السـياسـية والجيوش النظامية في أزمنة الحروب الداخلية."

أدخل ما تبقى من البطائق في جيبه.

"وتزدهر أســواق الدجل والمذاهب والجهات والمجموعات المسلحة."

عاد بابتسامة متوهجة على لهب المواقد.

تقف نحلة على شــفا التابوت متجمدة ومنكمشــة كأن ثعبانًا وقع أســفل قميصها، ثم كسرت صمتها بتوتر وغضب تحاول جاهدة إخفاءه.

"عمو الدكان.. التقط النقود القذرة من جيبي بنفس الطريقة التي دسستها فيه."

"أنتِ الخاســرة.. من تقع الأموال في جيوبهم دون جهد لا يقدرون النعمة."

٢٢

دوى صوت الطفل وبكائه في رأس راية من جديد نهارًا، تتابعت المشاهد في خيالها وتكررت. تستمر في لوم نفسها. مع مرور الوقت توضحت الأشياء داخلها، بدا لها من اضطرابها أنها هي من تحتاجه أكثر من حاجته إليها.

خطت بقدميها الحافيتين في ظل الفصول نحو أسفل السلم. تجلسان الآن بخواء إلى جوار بعضهما. تفكر نحلة بما فعله معها المسَلَّم، وتدرك ما يمكنه فعله في قادم الأيام.

"كان معه حق.. اسمي الحقيقي ماريا حبيب.. كذبت عليكم وهذه هي الكذبة الوحيدة والأخيرة. كنت خائفة، وحدث ما كنت أخشاه."

هذه ماريا حبيب الصحفي التي شاع خبر هروبها في الجرائد، وأثير حولها كل ما أثير في الصحف، وتداول الناس الحكايات والقصص المختلفة عنها وعن هروبها. في كل يوم كانت عناوين الأخبار تصعد بقصة جديدة. حتى وهي تراها أمامها لم تزحزح راية الرواية التي رسخت في ذاكرتها، هذه الفتاة ضحية ما يعتمل في عقول كل الناس.

"ثمة شيء في داخلي أضعته.. يعيدني إلى الخلف.. إلى لحظة بعيدة وغامضة.. ليست واضحة الآن.. لكنها تتجسد عبر صورة طفل مررت به حين غادرنا المنزل." قالت راية.

"أنا أيضًا أضعت الموسيقى.. حين أتذكر آلة الجيتار الذي كنت أعزف عليه.. أشعر وكأنني أضعت جزءًا من روحي إلى الأبد." قالت ماريا.

(...)

خرجتا فورًا تلبية لنداء الدكتورة فتحية.

لفت راية قدميها بمطاط إطارات السيارات الأسود، ثم التقطتا صفائح المياه الفارغة، وسارتا بحذر بين توابيت الساحة، وعبرن المساحة الصغيرة التي يتكدس فيها الأطفال للعب، بهيئات عمال المناجم، وبملابسهم الممزقة والمرقعة، ورؤوسهم التي تغلي تحت السماء.

سلكتا ظل سور المدرسة من الخارج، تمشيان بهدوء على إيقاع تصادم أقدامهما بالصفائح. التقطت راية قطعة زجاجية صغيرة من مرآة محطمة، بالكاد استطاعت رؤية عينيها فيها. تذكرت تلك الأوقات التي كانت تجلس فيها أمام المرآة في غرفتها، تسرح شعرها على مرأى من أدوات التجميل. لم يحزنها ضياع تلك التفاصيل. كانت تفعلها في كل مرة وهي تتخيل طريقة تستطيع أن تجمل بها وجه الواقع. غير أن روائح قناني عطورها التي فاحت

من الذاكرة جعلتها تستشعر رائحتها ورائحة أجساد النازحين النتنة في الساحات والفصول.

ناولت شق المرآة لماريا.

"لم أعد أحب النظر لوجهي في المرآة". ردت ماريا، وطوحت بها في الأفق.

"بنات عديمات التربية". جملة وصلت إلى مسامعهما.

كان صوت سالم وهو جالس أمام خيمة مثبتة إلى حائط السور الشمالي من جهة الخارج.

ألهبت الشمس وجوههن وهن عائدات منهكات بصفائح الماء من البئر. قرب بوابة السور رأتا تجمعًا لأطفال فضوليين، غير نازحين، حول رجل يحرك كاميرا في المكان.

"أخيرا اكتشفتنا الكاميرا". قالت راية.

صوبت الكاميرا نحو الشابتين، لقطة ثمينة لنازحتين بهيئة رثة، تحملان الماء على رأسيهما. هبطت العدسة نحو أقدامهما، هوت راية بصفيحة الماء محاولة إبعادها.

بدا الأطفال من سكان القرى المجاورة، وكأن فضولهم على وجود مراسل تلفزيوني أكثر من فضولهم على وجود امرأتين لا ترتديان الملابس السائدة.

فهم لم يعرفوا بعد معنى كلمة نازح. بدت لهم مرادفة لمفردة مهمش. ترسخ في عقولهم أن المهمشين لا يملكون منازل، هؤلاء فقط يجوز لهم أن يرتدو أي شيء دون أن يحاسبهم المجتمع.

في وسط الساحة اجتمع الرجال والنساء مع بعضهم بملابسهم المتسخة وهيئاتهم المغبرة، ينزفون عرقًا تحت أشعة شمس حارقة، يحتمي الأطفال منها بظلال أمهاتهم. وقف مراسل قناة تلفزيونية عربية أمامهم يعيد تصوير جملته الأخيرة مرات عديدة حتى بدت مقنعة: "هكذا يعيش النازحون المنسيون خلف الجبال بظروف صعبة ومعقدة في مدرسة الحجة جمالة بنت عبد الواحد البعيدة."

استفرد سالم وعمو الدكان بالحديث إلى الكاميرا. كانت هذه اللحظة هي الأخيرة التي ترى فيها راية سالم وعمو الدكان في هذا المكان.

٢٣

انتصف الليل الثقيل وراية تفكر بحديث أمها لها: "شهر بالتمام والكمال مر على تواجدنا في هذا المكان البائس". تُقلِّب الأفكار في رأسها وسط أجساد نساء وأطفال على الأرض كبضائع منتهية الصلاحية في مخازن المصانع. شهر من النوم على البلاط البارد. شهر بلا أغطية وبالملابس الممزقة نفسها التي يرتدونها. شهر بلا أحذية ولا هواتف. شهر بلا اغتسال. شهر والأتربة تضرب الأجساد، وتتنفسها الرئات، والشمس تلفح الوجوه. تجعدت ملامح الرجال، طالت شعورهم، كأنهم نُشّروا على حبال ضخمة أسفل وهج شمس لا تغيب. تغيرت هيئات النساء، كأنهن يداومن على السباحة كلّ يوم في بركة من زيوت السيارات المستنفذة، وكأن السماء رشت أحماضًا حارقة على الأطفال.

وقفت راية على النافذة، كانت تشعر بالشفقة عليهم. لم تكفهم صدمة النزوح ليفهموا الواقع. ما زال لديهم أمل بالعودة وبحسن نوايا المتحاربين. يا لبؤسهم.

حشرات الليل في أوج حيويتها تتنافس على الإزعاج، بدت نجوم السماء كأنها تتطاير من فرن الموقد الكبير هذا الذي يسمى العالم.

بدأت يداها تضربان على الجدران ولسانها يقذف بكلام غير مفهوم. سوف تذهب وتوقظ ماريا وتتحدث معها، لكن أجسادًا متراكمة تقف بينها وبين

الخروج بسـرعة، تضـع قدميها على مسـاحات فارغة أحيانًا، وتارة تدوس على بعض الأطراف حتى وصلت الباب.

ظهر أمامها منظر الرجال النائمين في توابيتهم الترابية أسـفل الظلام، مقبرة موحشة يشخر كل أمواتها. فيما راديو عمو الدكان قد صمت إلى الأبد..

قالت بصوت خفيض وقد وصلت أسفل السلم. شكل صوتها خيطً رقيقًا في قلب الليل:

"ماريا.. نائمة؟"

"هذا أنت راية!"

"لماذا لست في مكانك ماريا؟"

"سـمعت وقع أقدام تنزل من أعلى السـلم.. انسـحبت من مكاني سـريعًا إلى هذه الزاوية المظلمة لأراقب. رأيت شـخصًـا جثا على ركبتيه وتحسس مكاني.... ثم غادر صاعدًا الدرج".

"خيالات.. خيالات.. تعالي لأحدثك".

"ماذا؟"

"أظن أن مشـكلة النازحين هؤلاء هي مع المرآة بعد أن كانت مع المرأة."

"لم أفهم!

"ما زال لديهم أمل بعودة ينتظرونها كل صباح. ينتظرونه من الذين لم يهتموا بمغادرتهم، وسرقوا منازلهم ومستقبل أطفالهم، وأضاعوا كرامتهم. لو كان لدينا هنا مرآة كبيرة في الساحة لنظر كل نازح لملامحه ليرى كيف تبدلت، لعله يتذكر من أوصله إلى هنا. المصيبة أن كل واحد منهم يعتقد أن حاله أفضل من الآخر، ولم يكبر عشر سنوات في شهر واحد. لا أفهم من أين يأتيهم الأمل بالعودة.."

(.....)

سمعتا أصواتًا متداخلة لنساء. خرجتا لتتبع مصدر الصوت. وصلتا إلى المكان الذي ينام فيه "نازح" ووالدته. شقت راية دائرة النساء اللاتي كن قد سبقنها: امرأتان تتمسكان بذراعي الوالدة المكلومة، ونازح في يد امرأة أخرى، جثة هامدة. رأت راية المجاعة في جسد نازح الضعيف، حين أنزله والده قبرًا صغيرًا حفره الرجال قبل قليل.

انفرطت عيون كل الأجساد داخل فصول المدرسة وفي ساحة التوابيت، بكاء وعويل ويأس، قلوب البشر كتلة من الخوف تتدحرج إلى مالا نهاية وسط الليل. بدت التفاصيل هزلية من وجهة نظرة راية: "الحزن في قلب الحزن عبوات تفجر بعضها. اليأس في قلب اليأس اتجاه مبهم لشيء قادم. المصيبة في قلب المصيبة تصغير لإحداهما. لكن مشاعر التعاطف التي تحركها مأساة في قلب المأساة كوميديا حمقاء".

تكومت النساء مستلقيات على أرضية الفصول تحت أشعة شمس تدخل من النوافذ. أجساد منهكة ضمت الأطفال إليها طوال الليل. تتنمل أذرعهن تحت الرؤوس المصابة بالدوار. يصل إليهن أصوات شقاوة الأطفال من الساحة كصدى بطيء. لا شك أن الرجال لا يزالون مستريحين في قبورهم. كانت راية تجلس مستندة إلى الحائط بلا تفكير ينازعها.

دوى انفجار ضخم في قلب الأرواح مباشرة، شيء جبار وقوي ينزع الإنسان من نفسه. يوقف الأنفاس بصوته المفزع وظلامه الكثيف. تصاعد غبار حالك غطى على الباب والساحة أمام راية. رائحة البارود قوية في أنفها. جسدها يهتز وأطرافها ترتعش. نهضت تتحسس الطريق بيدها نحو الباب، اصطدمت بالواقفات لتوهن، وتعثرت باللاتي لم يستطعن النهوض.

انحسر الغبار فانكشفت الساحة أمامها عن رجال بوجوه دامية، وعلى يسارها أطفال مبثوثين على الأرض بدمائهم. أجساد ممزقة. أصوات تستغيث. برك من الدماء. خوف يفجر الوجوه.

مضت أيادي الجميع تمتد إلى الأجساد السليمة، يتناولونها ويركضون بها إلى الفراغ، هو الموت ينتظرهم في الأمام، في منطقة مهجورة لا تؤدي إلى الحياة.

صمت عالٍ في المكان، صمت يعادل الضجيج الذي يتجاوز قدرة الأذن على سماعه.

عاد الرجال بالأطفال متسربلين بالدماء بين أياديهم. لم ينج منهم أحد. صارت القبور التي ينام فيها الكبار، توابيت لأطفالهم. وضعت فيها أجساد ممزقة، وجُرف التراب عليهم.

كانت الشمس قد بدأت الانحدار نحو غروبها، والرجال والنساء يغادرون مدرسة الموت صاعدين الجبل. جلس صقراوي وعائلته وحيدين على القاعدة الإسمنتية لسارية العلم، يحدقون في أمكنة النوم التي صارت قبورًا بشواهدها.

مضوا ببطء يستعدون للمغادرة من بين قبور الأطفال، يعاينون ذكرياتهم في المكان، رفضت الأمهات الابتعاد عن منازل أطفالهن الجديدة.. وحين غادرن تركن أصوات الصغار وضحكاتهم وأحلامهم الطينية تحوم في المكان.

تحاول راية إغلاق الباب الحديدي للسور، نادت: ماريا.. ماريا. وعادت تبحث عنها، تذكرت أنها لم ترها منذ الليلة الماضية. والداها يركضان خلفها إلى أسفل السلم. توقفا ينظران نحو ابنتهما الجاثية على ركبتيها تحت وطأة سعال قوي يجعلها تنحني وتلامس الأرض برأسها، كانت تحاول البصق بمعدتها قرب جسد ماريا.

تسمرت والدتها في مكانها، تقدم صقراوي خطوتين من ابنته، رأى أمامها جثة نحلة، ممددة وسط دم جاف على بقايا أوراق الكتب والدفاتر وقد انفصل

رأسها عن جسدها، سحب ابنته التي تهتز برعب، أسندها مع والدتها إلى أحد الفصول. حفر قبرًا للجثة، وضعها فيه، ثم أهال إليه التراب. أتت راية وهي تحمل حجرًا غرسته في التربة كشاهد قبر، نحتت عليه بحجر صغير اسم: ماريا الصحفي.

"ابنتي تهذي باسم تلك الفتاة التي فقدت قبل سنوات". عاودتها تلك الحالة القديمة حين غابت الطفلة ماريا الصحفي، كانت ترفض الأكل، تماهت معها حتى رفضت النوم، ظلت واقفة أمام النافذة لأيام، كانت تتخيل أنها ستراها، ستمر بالجوار كملاك، ستأخذها إلى والدتها التي غابت في غرفة العناية المشددة لأيام. هزت هذه الحادثة وجدان الناس وزرعت الخوف في أرواح الجميع. الخوف يشبه تلوث إشعاعي لا يمكننا التخلص منه، نستطيع تغطيته بمواد خاصة، لكن عند أي تغير على السطح، تعاود الانبعاثات من جديد. لا بأس سترتاح روح ماريا الآن وقد سجل لها قبرًا. كل الناس في هذه البلاد ماريا، لكن بطريقة مختلفة.

"هيا لنذهب قبل عتمة الليل يا ابنتي".

سحبت الباب خلفها في مواجهة عين الشمس المروعة حمرة وجفافًا.

٢٤

من الجهة الشـمالية للمدرسـة ثمة منظر رأته راية لأول مرة، وادٍ يحوي مجموعة من المزارع، مفصـولة عن بعضـها البعض بترسـبات ترابية كظهور الدواب، محاط بأشـجار سدر خضـراء تتوزع على أطرافه، يمتد حتى أسفل الجبل.

كان يجب على راية وعائلتها أن يعبروا هذا المكان قبل غروب الشـمس. لاختصـار المسـافة لابد أن يمروا من وسـط محصـول الحقول الذي لم يثمر جيدًا بسبب شحة أمطار هذا الموسم.

بدأ مطر خفيف بالتساقط، ترتمي قطراته على الأرض بشاعرية حزينة أسفل احمرار ضـوء الشـمس الذي يتدلى من الأفق. يخطو صـقراوي أمامهما، يفسـح سـيقان السـنابل بكلا يديه لخطواته، رائحة التربة تنفذ إلى حواسـه، يتجلى بداخلهم إحساس بمواساة سماوية. السماء تشاركهم البكاء أيضًا. تختلط دموع السحاب بدموع المآقي.

بدأوا صعود المدرجات القديمة التي هجرها أهلها ومات بانوها، يدوسـون على الأعشـاب والنباتات فتقترب روائحها من أنوفهم، وكلما صـعدوا هبطت الشـمس نحو خط المغيب، هواء خفيف يضـرب أجسـادهم المبللة والحزينة، فتسرى رجفة البرد في أطرافهم.

حين انتهوا إلى الأعلى كانت الشمس قد اختفت في الأفق وبقي قليل من أثر ضوئها وسط سحابة على شكل مقلة دامعة. ظلام هبط في مساحة المدرسة وما حولها، وقرى تتهيأ للظلام الكثيف.

"لم أرَ عمو الدكان بابا".

"أنا أيضًا لم أصادفه منذ ليلة أمس".

"ربما غادر بالحافلة".

"غريبة أن يغادر ولا يخبرنا!"

استقرت أقدامهم لأول مرة على طريق ترابي. راية تمضي خلفهما وهي تحمل حقيبة النزوح. كان المطاط الملفوف على قدميها قد ثُقب من الأسفل. بدأت تشعر بوخز الأشواك والحصى الحادة. يجب أن تحتمل ألم باطن قدميها المدميتين، وتستمر بالتقدم إلى الأمام.

تفكر بمن قذف المقذوف إلى ساحة المدرسة ومن ذبح ماريا! قال والدها:

"حوادث الحرب تلفها الغموض والمتاجرة، إراقة الدماء ورقة إعلامية سهلة بيد من يمتلك السلاح.. كما يتقاذفون بالنار يتقاذفون بدماء الأبرياء والعزل.. علمتني الحروب التي عشتها أن الفاعل هو من سيستفيد من هذه الحادثة".

"من هو المستفيد من هذه المجزرة؟!"

"من سيستخدم هذه المدرسة المحصنة بين الجبال كحصن عسكري لاحقًا".

كلما قطعوا الطريق في الظلام تقترب منهم أصوات انفجارات مدوية تأتي من بعيد، على ضوئها يحتفظون في خيالهم بصورة التفاصيل أمامهم؛ لئلا تتعثر أقدامهم. أحيانا يسترخي أحدهم في طريق مستوٍ، يمد قدميه المتعبتين إلى الأمام لحمل جسده الواهن، ثم يعض أسنانه إثر الوقوع في حفرة لم ينتبه لوجودها، أو يمد قدمه في منخفض توقَّع مستوى معين له في الظلام فيظهر له مستوى انخفاضه عكس ما توقعه.

مشوا كثيرًا ولم يصلوا إلى طريق أسفلتي، ربما ظلوا الطريق، أو اتجهوا بشكل متوازٍ لبلوغ الهدف، لكنهم استمروا على أية حال، فالتقدم إلى مجاهل الأمام أفضل من البقاء في الخلف في مثل هذه الأحوال.

بدا اليأس على الدكتورة فتحية وهي تلقي بجسدها على صخرة كبيرة جوار طريق الأسفلت وتكرر كلامها:

"أهلكونا.. الله يهلكهم.. أهلكونا.. أهلكونا".

"تعبنا ونحن ننجو بأرواحنا من مكان إلى مكان.. ضاعت أعمارنا في حرب تلحق حرب وأزمة تجر أختها".

المركبات التي تعبر الخطوط في مثل هذه المناطق البعيدة نادرة في زمن الحرب.. اضطجعوا جوار بعضهم إلى الصخرة يحتمون من الرياح الباردة

وحيوانات الليل المفترسة، في انتظار وسيلة نقل تقلهم إلى أقرب مكان آمن. لو جاءت سيارة من بعيد يمكنهم رؤية ضوئها. ضوء سيارة، هو أملهم للهرب والنجاة.

رياح باردة تهب من الأشجار المجاورة. ثلاثتهم أطبقت بهم أجفانهم وذهبوا في نومة لا يعرفون إن كان قد فاتهم خلالها مرور مركبة ما.

نهض صقراوي يخطو إلى الأمام خطوة وأخرى إلى الخلف. يتقدم ويتأخر. يجرب حيلة ليتساقط النوم والوهن من جسده في هذا المكان الذي يشك الواقع فيه إن كان يتواجد على سطح كوكبنا. مكان في غاية الوحشة والعزلة والخوف.

كشفت مركبة قادمة من بعيد عن ضوء خافت، اندفع صقراوي إلى الأسفلت، وقفت زوجته وابنته بمحاذاة الطريق. تباطأت سرعة الناقلة الصغيرة وهي تقترب منهم وصقراوي يلوح لها في منتصف الأسفلت. يبدون كأشباح لا بشر حقيقين بهيأتهم ومكان تواجدهم.

"نحن عائدون إلى..."

"إلى أين تريدون الوصول؟!"

"خذونا معكم".

"هيا.. بسرعة".

صعدت الدكتورة فتحية على الناقلة الصغيرة بمساعدتهما، ثم صقراوي بصعوبة وهو يزفر من صدره، ومن خلفهما راية، استجمعت قواها ورمت جسدها قربهما وقد استعجل السائق الانطلاق.

ناقلة لسائق مجازف تشق درب العودة في الظلام، تقفز على حفر ومطبات، يهتز صندوقها إلى الأعلى والأسفل، ويتمايل على الجوانب، غطى وجوههم بقايا الإسمنت المتبقي في صندوقها.

في الحقيقة لم يسمعوا ما قاله لهم السائق عن الوجهة التي يقصدها، لكنهم ركبوا على أية حال. يتجلى في ذهن راية وضوح التفاصيل التي توقعتها. مغادرة المنزل والنجاة بالأجساد ليست نجاة من مآلات الحياة التي تصنعها الحروب.

استقرت الناقلة الصغيرة بهم في شوارع مدينة مبهمة. ما زال سائق المركبة المجازف يتقدم وسط مدينة مشتعلة بالنار. مدينة مجهولة كأنها كابوس وسط حلم. توقفت المركبة في مكان مظلم لم يستطيعا تحديد مكانهم ولم تبادرهم فكرة للسؤال أصلًا.

تقدمت راية أمامهما، تعرج بجسد فقد السيطرة على نفسه، اختفت كل التفاصيل من مجال حواسهم، لم يشعرا بالاشتباكات واندلاع النار الذي يجري بضراوة من حولهم.

أضـاء نور داخل راية حين رأت منارة جامع بدت وكأنها تعرفها، تشـبه منارة الحي الذي يقع فيه منزل جدها في مدينة عدن. كأن والدتها اسـتعادت الذاكرة: بيت والدي من هنا. تقدمت عائلتها وهم يمشون خلفها.

لم تبك راية ولم يجرفها الحنين إلى تاريخ المكان الشـخصـي. تدرك أنهم ليسـوا أول الأشـخاص في ذاكرة الحي من يمشـون فيه بكل هذا الاضـطراب والتعب، وليسـت أول حرب دفعتهم إلى هنا ولن تكون الأخيرة في بلد لن تكفي صـفحة أحلام أجياله لكتابة كل الحروب التي اشـتعلت على ترابه منذ أن وجد، ولا لأسـماء القتلى والمخذولين وعدد الأوبئة والأمراض التي تتردد مرات كثيرة في كل جيل.

٢٥

دخلت باب المنزل المفتوح خلف والديها، بملابس لم تستبدل منذ شهر كامل، ورائحة لا تحتملها الأنوف. توقفت والدتها: "لا خالك ولا عائلته هنا.. ليس منزل جدك.. الحي يشبه الحي.. والمنزل يشبه ذاك المنزل". هبطوا إلى المخزن الأرضي. كشف لهم ضوء الشموع أجساد أبناء الحي المختبئة فيه.

جلسوا في المكان الفارغ، أجسادهم سوف تذوب من فرط حرارة غريبة في ظلام الليل. تحسست راية بيدها على السجادة المفروشة على الأرضية، وفي داخلها قالت: هذا هو المكان المثالي الذي أود الموت فيه. هنا أريد لجسدي أن يكمل انهياره بسلام.

لعل هذا المكان هو منزل جدها العدني الذي اختبأت فيه في الحرب الأولى التي نشبت في طفولتها. كانت في هذا التوقيت تختبئ في هذه الزاوية في أحد ليالي حرب صيف ١٩٩٤. كانت طفلة ترتجف في حضن والدتها، تتعرق من درجة حرارة خانقة، رغم مروحة في أعلى السقف تدور باستنفار. كانت في السابعة من عمرها حينذاك، تلعب أمام منزلهم في الحي المقابل لمنزل جدها. سمعت صوت الطائرات، رمت بعينيها نحو السماء تتابعها بخيال طفل يحلم بقيادة طائرة حين يكبر. تغير حلمها بسرعة وهي تشاهد ما لفظته

من نار وخوف. عادت نحو المنزل، جلست بين الحائط وركام من الكراسي والطاولات، مغطية أذنيها ومغمضة عينيها. ارتجف الحائط خلفها واهتز الركام أمامها. مضت تصد الأشياء التي لامستها.. حين صفى الجو أمامها وانحسر الغبار الكثيف برائحة البارود، رأت والديها يصرخان باسمها في الساحة الفارغة. لقد أنقذهما اختفائها حين خرجا للبحث عنها.

التقت عيناها بعيني والدتها، حملتها وسار ثلاثتهم نحو منزل جدها، كانت تنظر إلى منزلهم الذي يبتعدون عنه وقد حوله صاروخ آخر إلى ركام.

اختبأوا في المخزن الأرضي لبيت جدها، جلست هنا في هذه الزاوية في حضن والدتها، من حولها جدتها، جدها، خالها وزوجته.

لم يعودوا هنا الآن.

تفحصت وجوه الأشخاص في المكان، لم تتبين ملامحهم. استغرقت في دهشة أخرى حين عاد والديها ليجلسا مرة أخرى إلى جوارها. لم تشعر بهما حين نهضا.

أنصتت لحديث بين شخصين:

".. قيل إن الكثير من الناس عبروا البحر صباح هذا اليوم ووصلوا بسلام. في الصباح الباكر سوف نغادر هذا المكان نحو الضفة الأفريقية من البحر. أحد الصيادين سوف يوصلنا إلى هناك".

خوف صقراوي على صحة ابنته النفسية سوف يدفعه لارتكاب أية مغامرة غير محسوبة. عادت راية للهذيان باسم ماريا الصحفي. هو لا يعرف أن نحلة العامر هي ماريا الصحفي التي أرَّق غيابها ابنته في ليالي سابقة. استنفذت راية كل ما تملك لمسايرة والديها، وها هي تصل إلى النقطة الأخيرة.

"غادرا إن أحببتما.. هذه محطتي الأخيرة..".

لا تعرف راية إلى أين سيوصلهم طريق هروبهم من هذا المكان، فهي تتذكر جيدًا طريق هربهم الثاني في أول حرب حدثت في طفولتها، كانت في المكان نفسه حين أقبل والدها وتحدث مع والدتها:

"هناك سيارة إيجار، يعرف سائقها طريقًا آمنًا.. سنصل مساء الغد إلى مدينة تعز.. وسنتدبر سيارة أخرى إلى القرية".

(.....)

"خلاص انتهى الأمر".

أيقظا ابنتهما صباحًا. ودعوا الأهل. حملها والدها في حضنه. سلكت السيارة طُرقًا نائية. صعدت جبالًا مخيفة. نامت كثيرًا خلال الرحلة حتى وصلت مدينة تعز. أقلتهم سيارة شاجع إلى القرية. تتذكر استقبال جد حسان الخالد لهم وما حدث بعد ذلك: إصلاح منزل جدها. قرار والدها

بالبقاء في القرية. تأسيس والدتها العيادة الطبية هناك. عمل والدها في الزراعة. دراستها في مدرسة القرية. تعرفت على دناءة سالم مع أقرب الناس إليه. شهدت حروبًا وأزمات. ارتفاع أسعار ووعود انتخابية كاذبة. انحدار الحياة والمجتمع. تعرضت لمواقف لا يمكنها نسيانها. قرأت روايات كثيرة مع حسان الخالد. تخرجها من الثانوية. انتقال عائلتها إلى مدينة تعز من أجل دراستها. عمل أمها في عيادة المدينة. كشك كتب والدها. مساعدته في العمل وقراءة كل ما يقع تحت يدها من صحف السلطة والمعارضة. توازي حياتها مع حسان الخالد. المنازل العديدة التي انتقلوا منها. المظاهرات اليومية. صراعها في الكلية على درجة تعيينها كمعيدة وانتهائها بالفشل. اليأس الذي رأته يتوغل كل يوم في ملامح الناس وهيئاتهم. صنعت مع زملائها أحداث ٢٠١١ في الساحات. عملها التعاقدي في المستشفى الجمهوري. لقائها بحسان ثانية وافتراقهما في الحرب الأخيرة التي أوصلتها إلى هنا.

٢٦

عند القيادة، من مكان يشبه إلى حد كبير منزل صقراوي القديم في مدينة عدن، سوف تمر السيارة على الأسفلت المتشقق بمحاذاة ما يُعتقد أنه البحر. يخال المرء أنه يذوب من فرط درجة الحرارة. سوف يوقفك مسلحون بزي مدني محلي في عشرات من النقاط المستحدثة وتلك التي كانت للشرطة، سيوجهونك بالتحرك إلى اتجاهات محددة، أو حسب مزاجهم، إن سمحوا لك بالتقدم ستتجاوز حرائق كثيرة في الشوارع، ستجد نفسك وسط اشتباكات انفجرت للتو وليس لديك خيارات للتقدم أو العودة أو الاختباء، ولا لخفض رأسك، وستقود السيارة على طريقة أفلام الحرب. إن امتلكت حظًا وعبرت، ستحتاج حظًا آخر لضمان ألا تسقط قذيفة على سيارتك، أو يعترضك مسلح برشاش ينسفك طبقًا لمبدأ الحيطة والحذر، أو أن تخترقك رصاصة قناص، ينحني جسدك إثرها على المقود.

بعد تجاوز هذه العوائق ستختفي المباني والمحلات من حولك، وستتسع المساحات الفارغة في الاتجاهات الثلاثة. سينتصب أمامك مبنى المستشفى الكبير. مبنى غير مطلي بالأبيض، بنوافذ صغيرة وهياكل عمودية من المقدمة، محاط بسور من حجر حبشي بأشكال غير مربعة. تكتحل الفراغات بين الأحجار باللون الأسود بتعرج ثعباني. لن تعرف أنه مستشفى في النهار، لأن اسمه مكتوب بأسلاك مضيئة تُرى فقط في الليل وحين تمطر

السماء غبارًا. إذا تجاوزت البوابة بسيارة إسعاف فستنحدر بها إلى الأسفل حيث: الطوارئ، قسم العمليات، ثلاجة الموتى، ومطعم طاقم المستشفى. ستضع المريض وتخرج من باب جانبي.

الصعود من الأسفل يتم عبر مصعد كهربائي إلى غرف المعاينة والأشعة والعناية المشددة وصيدلية المستشفى، فإن شئت ترك هذا الطابق ستصعد إلى حيث غرف المرضى وغرف استراحات وحمامات طاقم العمل ومبنى الإدارة، وجناح عمليات خاص مجهز بكادر أطباء وممرضين وعمال منفصلين بشريًا واداريًا عن المستشفى، ويتصل بالطوارئ مباشرة عبر مصعد كهربائي خاص، مبنى يشبه دائرة عميقة في دولة فاشلة.

في غرفة العناية المشددة امرأة شابة مربوطة بالأسلاك إلى جسدها، وقصبة التنفس الاصطناعي في عنقها، وطنين الأجهزة حولها. يتوقع الدكتور قاسم نجران أن تفوق من غيبوبتها في الساعات القادمة.

حركت راية صقراوي أصابعها، رمشت بعينيها، تحدق في المكان.

"الحمد لله على سلامتك".

(.....)

كانت غير مدركة وجودها، ولا تعلم ما الذي حدث لها، تتذكر أنها استيقظت مبكرة في صباح الليلة التي نامت فيها في مخزن ذلك المنزل الشبيه بمنزل

جدها، صـعدت مع والديها إلى الأعلى، وارتدوا ملابس وجدوها في خزنة علوية، أكلوا بقايا خبز متيبس في المطبخ، ثم سارو يقصدون ساحل البحر. توقفت ذاكرتها عند تلك اللحظة.

دفعت الممرضة الشابة المريضة على العربة نحو غرفة رقود النساء. وضعتها على سرير شغر للتو بين مجموعة من المرضى الذين يرتمون على الأسرة، يحاصرها أنينهن وهذيانهن وشتائمهن للمشرفات غير المباليات.

بدت راية امرأة شـبحية وهي تحدق في مصـباح الغرفة المحترق من أطرافه والطلاء المقشر على الحيطان. لقد شعرت أن فصلًا جديدًا من حياتها ابتدأ، هذه المرة لم تشعر به في أوانه فقد كانت مغمى عليها.

استنتجت راية ما تعرض له والديها، ولم يعد مهمًا ما سيتحدث به الدكتور قاسم معها.

"أوصلك صياد إلى هنا مع حقيبتك هذه."

".. غرق كل من في القارب."

".. عرفت مهنتك من الوثائق في الحقيبة.. نحتاجك للعمل معنا في هذه الظروف."

يصـوب الدكتور قاسـم عينيه نحوها بارتباك، لم تُبدِ ردة فعل معتادة على فقدان من معها في القارب. حرَّك رأسه على طريقته في طرد شعور داخله.

"من كانوا؟"

"والديَّ ونازحِون."

ببرود، رفعت راية نصف جسدها إلى الأعلى، سحبت السائل الذي يقطر في وريدها. لم يرف لها جفن ألمًا، ولا تعبير يمكن التقاطه سوى الجمود. أنزلت قدميها إلى الأسفل:

"مستعدة للعمل من الآن."

"تحتاجين إلى الراحة.. العمل مرهق.. تصلنا كل يوم حالات كثيرة من مناطق المواجهات المتفرقة."

(....)

غادرت راية مع الممرضة الغرفة بناءً على أوامر الدكتور قاسم وسط تدافع النساء وتكدسهن في المكان. خرجتا من باب المستشفى الخلفي، ثم سارتا صامتتين أسفل شمس حارقة ورطوبة عالية نحو ملحق صغير معلق في زاوية السور على أربعة أعمدة خرسانية. صعدت السلم الحديدي، ناولتها الممرضة الحقيبة والمفتاح.

أغلقت راية خلفها الباب الضيق، واستندت على باب المطبخ، خطت ثلاث خطوات مستقيمة إلى الغرفة الوحيدة، رمت بالحقيبة ويدها على باب الحمام، ارتمت في مكانها على إسفنجة مربعة صفراء بلا مخدة تضعها أسفل

رأسها. أربعة أخشاب على السقف، ومياه تتسرب من الألواح الخشبية تركت أثر بقع سوداء، ومصباح متدل. بحثت عن المفتاح خلفها وأشعلته. حولها طبقة طلاء أبيض خفيفة تعجز عن تغطية كل فراغات الحيطان. في جوارها منفضة سجائر وعلبة دخان، أشعلت واحدة وهي تنظر نحو أشعة تدخل من بين ثقوب الباب الخشبي للشرفة المطلة على حديقة المستشفى.

فتحت حقيبة النزوح التي وصلت إليها، وألقت كل ما فيها إلى جوارها: أوراق أملاك جدها.. مستندات منزلهم في عدن.. وثائق عائلاتها.. بطائقهم الشخصية.. بطائق انتخابية.. جوازات سفر قديمة.. أسنان جدتها الذهبية.. ختم باسم والدها.. وثائقها الدراسية.. أخرى ملفوفة لم يتسن لها مشاهدتها. أعادت كل الأشياء إلى داخلها. أبقت هاتفها لتصله بالكهرباء.

تسمع دوي انفجارات، وأزيز طائرات ترسل الصواريخ في محيط المكان. نهضت وفتحت الباب الخشبي. تطاير غبار كثيف منه في الضوء. تنظر من خلاله نحو واجهة المستشفى القاسية، والحديقة التي يقلبها رجل كبير. تتساقط حبيبات العرق من على وجهه المنكمش.

توقعت الجهة التي صعدت منها روح والديها. تابعت مقذوفًا يمر في الأعلى وهي تبتسم نحو الأفق ببلاهة. تنفست رائحة الهواء المشبعة بالبارود. وصلها صوت سيارة إسعاف قادم من بعيد، يتصاعد صوتها المخيف، اقتربت من مجال رؤية عينيها، تابعتها حتى خبى الصوت واختفى في جوف المستشفى.

أغلقت الباب الخشبي، دلفت الحمام واندست تحت المياه الحارة، تركت المياه تغرق شعرها وتنساب عليه حتى شعرت بالاكتفاء من الماء. ارتدت ملابس الأطباء، سروالًا ومريولًا طويلًا، لمَّت شعرها أسفل غطاء الرأس الذي يُرتدى في غرف العمليات، هذا ما وجدته، وهذا ما سوف ترتديه في المستشفى والملحق، في نومها وصحوها.

تمددت على فراشها باسترخاء، شعرت بحاجتها لشرب الماء. أشعلت سيجارة ونفثت دخانها في الهواء، تأملته وهو يصعد عبر ضوء القنديل الأحمر المعلق أعلى رأسها. هل هو حقيقي ما تراه الآن؟

٢٧

نامت راية نومًا عميقًا. استسلم جسدها لغيبوبة صغيرة على الفراش أسفل مصباح الضوء الذي لم تطفئه. لم تستطع إيقاظها حرارة الجو ولا أبواق سيارات الإسعاف ولا أصوات القذائف. كلما فتحت عينيها أغمضتهما ثانية. حين نهضت كان جسدها يتعرق. الساعة تتجاوز الرابعة فجرًا، أطبقت عينيها مسترخية، تحاول تجاهل قرصات معدتها الفارغة.

من الشرفة كانت الحديقة مضاءة أسفل عواميد الإنارة الحمراء، وصوت مولد الكهرباء يئن في الجانب الخلفي من المستشفى. ارتدت غطاء الرأس الخاص بغرف العمليات وخرجت حافية القدمين، يقشعر جسدها لنسمات بحْرية تلامسها.

نزلت السلم إلى المستشفى حافية القدمين تبحث عن بوفيه أو مطعم صغير. تعبر الحديقة بقدميها الحافيتين، تجفل منها القطط الجائعة مثلها والتي تخمش أكياس القمامة السوداء. تذهب نحو مكان محدد في رأسها؛ هي تعرف أن هذه الأماكن لصيقة بطوارئ المستشفيات من هذا النوع. بدت في اضطرابها غير متناسبة مع المكان، طبيبة شابة فقدت عقلها للتو. ملامحها الأقرب إلى الهندية ستجعلها أكثر حرية في ارتداء ما تريد أمام المرضى وزوار المستشفى.

انضـمت إلى الدكتور قاسـم وهو يدخن بشـراهة بعد تناول الطعام. منحنٍ على الطاولة بجسده الممتلئ، كأن جزءًا من سحب الدخان علِّق على شعر وجهه ورأسه الأشيب. راية مستعدة للعمل بعد أن نامت وأكلت الآن، لكن هناك إجراء إداري لابد أن يتم أولًا. صـادف هذا اليوم يوم وداع الدكتور قاسـم، هي محظوظة حين أتى بها الجوع إلى هنا وجلسـت معه، وذكرته بنفسها.

تعود الآن ممتلئة بطنها بالطعام، لا تبدو مريضـة ولا أثر لجرح عليها. كأنها نومت أو خدرت لأيام. لا تعرف كم عدد الأيام التي مضـت على حالتها هذه. شـعور مخاتل كأنه خِيط بدخان. هل صـحيح أنها لن ترى والديها بعد الآن؟

هل تذكرت أن دكتور قاسـم هو ذاته أسـتاذها الذي علمها في الكلية. كان واحدًا من الأسـتاذة الذين لم يفهمونها. شـعرت بدوار أمام لوحة المواد المعلقة على الحائط. لماذا هذه الكعكة الحمراء أمام اسمي. هناك خطأ غير قابل للتصـحيح. صـعدت سـلم الكلية إلى مكتب الدكتور قاسـم، فتحت الباب ووقفت تتأمله. تحولت ثورتها إلى بكاء أمامه، لمست بشعره الأشيب وملامحه السمحة شيئًا من التعاطف. لعله يعرف وسيطمئنني الآن.

"ما السبب الذي دفعك إلى التغيب عن الاختبار في مادتي؟"

"لم أتغيب.."

"أين دفتر إجابتك إذن."

كانت في المستوى الثالث حين كسرتها الضربة. كيف يمكن لمتفوق في المرتبة الأولى أن يغيب. كيف حصلت في الحضور على علامة كاملة وغابت يوم الاختبار. ليس من المعقول أن طالبة تتفوق في جميع المواد أن تغيب. من سيسمعها إذن، بعد أن رفض الكونترول ورئيس القسم وعميد الكلية.

نزلت سلم الكلية متعبة، تضع قدميها على الدرج حذرة. قد تتفاجأ برغوة صابون وتنزلق إلى الأسفل. مضت صامتة في المساحة المزدحمة أمام القاعات في الأسفل. اختفى الجميع من أمامها. وصلت البيت مصدومة. والدتها ليست في العيادة ووالدها في كشك الصحف.

أحلامهما التي وضعاها في ابنتهما ويضحيان من أجلها ليست مرتبطة بها وبتقصيرها، بل بما يعتمل في المجاهل العقلية والنفسية للآخرين. تخرجت وقد خسرت حقها برتبة معيدة. لكن الدكتور قاسم سهل لها عملًا تعاقديًا في مستشفى الجمهورية في المدينة. ستدفن في قلب الروتين. وستحمل في صدرها كل الآلام، ستكتشف أنه عمل بلا مقابل كافٍ. إن لم تحضر وجبتها من المنزل، لن يغطي ما تقبضه مواصلات للذهاب إلى المستشفى والعودة إلى المنزل.

٢٨

أغلقت راية الملحق المعلق، نزلت وبيدها مؤهلها الجامعي تقرع السلم الحديدي بحذاء طبي حصلت عليه من الدكتور قاسم قبل مغادرته. وازنت مشيتها على التربة المتقلبة في الحديقة ثم على الرصيف المحاذي للمستشفى، ثم انعطفت يمينًا ودخلت الطوارئ. من وراء زجاجه الشفاف رأت أجسادًا ملقية على أسرة مبعثرة، ومروحة تدور في الأعلى، وطبيبًا يدخن في الممر.

اتخذت المصعد إلى مكتب المدير العام الملاصق لجناح العمليات الخاص، نقرت مرتين على الباب الخشبي، وصلها صوت أجش ومتبرم من خلفه يوحي بنبرة شخص غير مهذب. كان رجلًا بدينًا يجلس خلف مكتب خشبي لامع، يضع ثقل جسمه على كرسي ويحرك ماوس مرتبط بجهاز كمبيوتر محمول أمامه، وجهه أبيض، وذقنه حليق، ورأسه متصحر من الأمام.

كانت في مواجهته حين أطفأ جهاز التلفاز واعتدل في مكانه. مدت إليه ملف وثائقها.

"حدثني الدكتور قاسم عنك قبل مغادرته."

"أنت خريجة طب بشري وعملت لأكثر من سنتين في المستشفى الجمهوري."

"يتم تعيينها في الطوارئ ضمن فريق العمليات." خربش على الملف، وناولها إياه.

"خذي.. موفقة."

خرجت بالصمت الذي دخلت به، لمحته يحدق فيها وهي تستدير لتغلق الباب وراءها. فهمته بحدس أنثى. من هناك كانت تطل على باحة المستشفى في الأسفل، ترى لوحات مكتوب عليها: الصيدلية، غرفة المعاينة، الأشعة. القبة الزجاجية للسقف تنعكس ألوانها المغرية على البلاط.

اختارت النزول عبر الدرج وهي تفكر بالتفاصيل التي قدحت رأسها فجأة. مر شريط حياتها في خيالها. إنها قوية، لقد دربتها الحياة على اقتلاع كيانها من تربة الحنين والعاطفة، ونسيان جزء من روحها أمام أعاصير النار. قتلت كل الآمال والأحلام المسترخية. حسمت مشاعرها، وتصالحت مع تشعبات الحياة وحبالها، لن يعاودها ذلك الطفل الذي يهجم على رأسها بعد الآن، فهي لا تريد أن تستعيد طفولتها التي سقطت منها في أول حرب حدثت في حياتها.

هي من هذا الجيل، جيل أحرقت الحروب والأزمات حياته، لابد أن يعيش مشردًا في منازل بلاده، وأماكن عمله، لا يحلم بتكوين عائلة صغيرة، ولا بمنزل ومكتبة ثابتة فيه، إذا رام الاستقرار سينفق سنوات من عمره في العمل عليه، وستُبَدِّد أول حرب أو أزمة سياسة مكتسباته الشخصية هذه.

وصلت الطوارئ. دخلت البوفيه أولًا. جلست قبالة طبيبة هندية. تفحصتها هذه بعينين بارزتين وخدين منفوخين وعلامة القسوة تنزل من جبهتها. اعتقدت أنها مواطنتها، لكن حديث راية جعلها تسقط سوء الفهم سريعًا. انتهت من تناول الوجبة المجانية ودويّ الانفجارات يتتابع، ومواجهات تستعر في محيط المستشفى.

فتحت الطبيبة الهندية قنينة ماء وصبت منها نصف كأسين، ثم أضافت لكل منهما محلولًا غريبًا أخرجته من حقيبتها، رشفت راية من الكأس الذي قدمته لها، ونظرت إليها مستفهمة بحركة سريعة من رأسها.

"لن تستطيعي تحمل الفظاعات من دونه."

تجرعتاه وهما تنفثان دخان السجائر. لا تعرف الطبيبة الغامضة أن قلب الشابة مدرب على فظاعات الحروب منذ طفولتها. تنام على أزمة وتستيقظ على حرب. كانتا تدخنان باسترخاء قبل العاصفة. أطفأتا سيجارتيهما في قت واحد على وقع أصوات سيارات إسعاف تهبط الطوارئ.

مسعفون على العربات ينقلون جثثًا مدمية، رؤوس مهشمة، أجزاء مبتورة، دم ينز من الأجساد. تزيل الممرضات الملابس عن الجرحى، يدخل غرفة العمليات بعض المصابين الذين تنتقيهم كبيرة الأطباء الهندية بمعاييرها الخاصة، يجرون تدخلات جراحية عاجلة. تمسك راية بمبضع الطبيب، تفتح الجروح وتزيل الشظايا وترتق بيد ثابتة لا تحيد عن جرح ولا يخالجها خوف.

تأتي سيارات مدنية تلقي مصابين من المدنيين بعيارات نارية راجعة من السماء، أو قنص مباشر لأطفال ونساء ورجال. أجساد تصعد إلى جناح العمليات الخاصة. أجساد تخرج على أسرة من غُرف العمليات إلى غُرف العناية المشددة، وأجساد تخرج من العناية المشددة إلى غُرف الملاحظة العادية، وأجساد كثيرة تخرج من غُرف العمليات وغُرف العناية المشددة وغُرف الملاحظة العادية إلى ثلاجة حفظ الموتى، وأجساد لا تمرُ على الغرف السابقة، تذهبُ مباشرة إلى الأقفاص الباردة.

تخرج راية بعد ساعات من غرفة العمليات كل يوم وثوب الجراحة الأبيض مخضب بالدماء. دماء على يديها، دماء على صدرها وعلى الجزء المائل من كمامة وجهها. تمشي عبر الممر الضيق الطويل تطبع خطواتها لونًا أحمر على الأرضية البيضاء، تصعد الدرج إلى الطابق حيث غُرف العناية المركزة، تخرج من الباب الخلفي، تسير نحو سكنها، تنزع كل ما ترتديه وتلقي به في سلة صغيرة. تخطو عارية نحو الحمام، تغمض عينيها أسفل الماء، كل الجثث التي تعاينها، أو تذهب من تحت يديها إلى ثلاجة الموتى تتساقط من جسدها، تفلت قطع لحم آدمية من بين يديها وتذهب في مجاري الماء نحو البحر أو الخلاء.

حين تحس بخفة، تنحني وتوقف رشاش الماء، تترك القطرات تنزلق من جسدها، تجففها حرارة الجو سريعًا، ترتدي ملابس جراحة جديدة، ترتدي

الســروال والمعطف الأبيض، تلم شــعرها داخل الغطاء المُعقم وتســتلقي على الفراش.

جلســت راية تتناول الطعام في البوفيه بشــراهة، أســفل مروحة الســقف التي تبعثر الهواء على غطاء رأســها. تفكر بآلية عملية في رســم مآلات الجرحى والمصــابين. أخلاقيات المهنة ليســت مهمة لديها. تتصــرف كآلهة صــغيرة، تميت الطيبين أولًا والذين يمتلكون مخالبًا أقل في التعامل مع يوميات الحروب وأزماتها، تحقن النازحين والفقراء والضعفاء بحقن الموت الرحيم كي تخلصــهم من تعقيدات البلاد وفاعليها ومذاهبها وفقدان الكرامة في المخيمات.

يأتي حاملو الســلاح إلى المستشفى، يكون لمرضاهم فرصة سبق الدخول إلى مربع العمليات، والحصــول على رعاية وعناية كاملتين، يأتي المدنيون فيُهمَلون حتى يتوفر من يدفع عنهم، أو يحتجزون حتى يظهر من يســتطيع الدفع عنهم أو تُحتجز جثثهم في ثلاجة الموتى.

تتسلح راية بزجاجات الموت الرحيم في جيوبها، تصعد إلى الصيدلية، تغافل الصــيدلاني المناوب فيها وتضــع علب من مادة الموت في جيوبها، تمتصــها وقت الحاجة وتغوص بها في أوردة من تختارهم، على الفور يصــفر جهاز نبضات القلب وتستوي خطوطه على الشاشة، ليستوي المآل السرمدي في حياتهم.

رغم اختياراتها الواضحة في قتل البشر، فهي تدخل في مراوغة خاصة، إذ تعتقد أن الأجساد القريبة من الموت تفصح عن نفسها، يُقرأ الموت في عيونهم، يندي من بشرة أجسادهم، يظهر في الخوف الذي يقيدهم ونفاد رغبتهم بالمقاومة، يأتون محاطين بحيوانات مفترسة وطيورًا جارحة ينساقون خلفهم ويحومون من فوقهم، حين تلفظ الأرواح يغادرون من النوافذ، ومن ثقوب الحيطان الصغيرة ومن أسفل الأبواب.. ينتظرونهم بعيدًا في المقابر.

لا يمر يوم في المستشفى الكبير دون وصول رجال ونساء بملامح مغبرة ووجوه بائسة ترتدي القنوط، يحملون صورًا يبحثون بها عن أقربائهم وجيرانهم وأصدقائهم، يبحثون في غُرف الملاحظة العادية، ثم في غرف العناية المركزة، آخر المطاف يذهبون إلى ثلاجة الموتى. يسحب الموظف أدراج الجثث المثلجة، تبرز وجوه مخيفة وفاغرة، أجساد متفحمة، أشلاء تنتظر دفنها. يغادرون بخيبة، ليرتسم الشعور نفسه على ملامح المدير العام؛ هو يحتاج من يدفع نفقات فاتورة العلاج أولًا، لكن، من يدري، لعل المبحوث عنه هو واحد من تلك الجثث التي فقدت ملامحها بدرجة يصعب التعرف عليها.

شهدت راية ذلك بنفسها. انتهت مناوبتها الليلية صباحًا. مضت إلى الممر الطويل نحو المصعد الكهربائي. لاحظت أنها الوحيدة التي تترك قدماها أثرًا للدماء على البلاط الأبيض، ذلك جعل عمال النظافة، من جنسيات أفريقية،

غادرو بلدانهم هربًا من الحروب، يلاحقون قدميها لتنظيف ما خلفتاه من دم.

وهي تقترب من المصعد أحست بجلبة خلفها، العمال مستعجلون بالتنظيف، أوقفوها في الردهة، لمعوا كل شيء وراءها وأمامها باضطراب، وقفوا جوارها احتجزوها بين أجسادهم.

من أول الممر أطل رجل بملابس أنيقة يحمل هاتفين بيده، محاط بمسلحين يرتدون ملابس عسكرية مخيفة.

هو كبير الأطباء في الجناح الخاص.

"لا تتحركي."

"ابقي ثابتة في مكانك."

كان يتحرك كزعيم عصابة وليس كطبيب. يناسبه حمل مسدس بيده وإطلاق النار على الأرواح في الشوارع وغرف الطوارئ والعمليات، ثم يركل الجثث بحذائه الأسود اللامع. دخلت راية المصعد بعد أن عاد من حمل آخر المرافقين.

نظرت لنفسها في المرآة وهي تتنفس رائحة عطر شانيل محبوس في المكان، أحست لأول مرة أنها لا ترتدي شيئًا أسفل ملابس غرف العمليات، أو بالأحرى لا تملك ملابسًا لترتديها أو نقودًا لتشتري؛ إن كان ثمة متجر

مفتوح. من خلال الزجاج شاهدت مسلحين كثر في البوابة الرئيسة وبوابة السور. وهؤلاء لن يغادروا أماكنهم بمغادرة كبير الأطباء في الجناح الخاص.

دخلت مكتب المدير العام، كان لايزال مفتوحًا. أشار لها بالجلوس بعد أن أغلق الباب بعجلة لا تحتمل التأخير. ظهر لها سلوكه المرن والمستحوذ.

"أحتاج المزيد من أطقم ملابس العمليات لأرتديها."

"سوف أشتري لك أفخم الملابس أن أحببتِ!"

"أريد ملابس غرفة العمليات فقط."

سحبت يدها بقوة من أسفل أصابعه على الطاولة، التقطت دزينة الملابس التي وضعها أمامها، صفقت الباب خلفها، هبطت بالمصعد إلى الأسفل ومضت إلى الكافتيريا تلتهم وجبتها المعتادة. كانت صغيرة أقل من المعتاد، التقطت بأصابعها الفتات الصغير على وجه الطبق أمامها.

دخنت سيجارة وهي وتفكر بغموض نحلة العامر أو ماريا الصحفي التي تبدت لها الآن. فكرت أكثر بطريقة موتها. هل هناك مخلص رحيم يفصل الرؤوس عن الأجساد. لا هذا ليس مخلصًا، إنه مجرم، المُخلِّص الرحيم إن خدش الجسد وأخرج قطرة دم واحدة يتحول إلى قاتل ومجرم. وما تفعله هي في غرفة العمليات لا يجعلها قاتلة؛ لأنها تفعل ذلك بنية خلاصهم وليس بسبق إصرار وترصد للقتل. هذا هو منطقها.

تركت دزينة ملابس غرفة العمليات على الطاولة وصعدت لحضور الاجتماع الذي رتب له المدير العام.

"المستشفى يمر بأزمة صعبة.. نقص في مستلزمات العلاج، نقص في الأدوية ونقص في وقود المولدات الكهربائية للمستشفى.. لن نستطيع الاستمرار كثيرًا بعلاج المرضى، ولن نستطيع هذا الشهر دفع الأجور.. سنحاول الإبقاء على وجبتين يوميًا لكل طبيب وممرض وعامل.. يجب أن نضحي جميعًا من أجل هذه البلاد.. أستسمحكم عذرًا.. ليسجل كل واحد منكم أمام هذه الكاميرا مناشدة عاجلة إلى المنظمات الإنسانية وأصحاب الخير وحثهم على مساعدتنا لنستمر بتقديم خدماتنا."

عادت راية إلى مكانها السابق في طاولة دزينة الملابس، كانت شاشة التلفزيون مفتوحة. لأول مرة تنتبه لوجودها على الحائط. شاهدت دعوات ومناشدات لإغاثة اليمنيين، رأت رجلًا، تعرفه، يناشد المنظمات والمانحين الدوليين لإغاثة اليمنيين، ظهر اسمه: "سالم المسلم: رئيس منظمة الإغاثة العاجلة".

رأت عمو الدكان يتحدث عن الظروف الصعبة للمخيمات ونقص المستلزمات في المستشفيات. ظهر اسمه: "ساري الكريم: المنسق المحلي لمنظمات الإغاثة الأجنبية."

حملت قدميها النازفتين، صعدت إلى غُرفة العناية المركزة. على شباك الصيدلية رأت أُناسًا يعانون من أمراض مزمنة يتسولون أدوية من الصيدلية،

وأمن المستشفى يوجه البنادق نحو رؤوسهم. دخلت حمامات النساء. نظرت بفضول من النافذة المفتوحة قبل أن تقوم بإغلاقها، رأت أطفالًا ونساءً تسللوا إلى أماكن تجمع المخلفات يبحثون عن شيء يؤكل، وقططًا جائعة تراقبهم من بعيد.

تركت الماء يجري في حوض المغسلة أمامها وهي تراقب نفسها في المرآة، انحنت تملأ كفيها، وتفرك وجهها الذي لم تتعرف عليه، ملامح غائرة خلف زجاج تكثفت عليه نقاط ماء وأوساخ.

أحست بيد تمسكها من الخلف، ثم ذراعين أطبقتا عليها. تجمدت على صوت يهمس لها: "خليك هادئة." وفي لحظة استرخائه انتفضت واستدارت نحوه، كان المدير العام يرفع يديه ويتراجع إلى الخلف وقد وضعت قرب عينه مشرطًا فاختفى من أمامها.

٢٩

دخلت راية غرفة استراحة الطبيبات الفارغة عصرًا. غرفة قميئة وقديمة تشبه غرفة الفندق التي دخلتها مع والديها. جلست على كرسي خشبي مطلي بأزرق أمام نافذة تدخل منها أشعة الشمس في هذا التوقيت، فتضفي حرارة مملة عليها، وتطل على مسلحين عند البوابة بجوار عربة عسكرية، ومرضى يدخلون ويخرجون، وقططًا تتحرك في الحديقة بضجر.

أسدلت ستارة مبقعة بأتربة على النافذة، أدارت درجة مروحة السقف فحركت هواءً لطيفًا، انزلقت في نعاس تدريجي، سمعت أصوات طائرات تجوب السماء، واندفاع صواريخ من الأعلى كأنها تمر فوق رأسها محركة الستائر، أصوات غريبة مختلطة بأصوات بكاء طفلة قادمة من بعيد كالصدى، وصوت لهاث عالٍ.

هي مستلقية الآن على قطار سريع ينحدر بأقصى سرعة من جبال شمال البلاد، تنفصل العربة التي تتواجد بها وتطير في الهواء من إحدى المنحدرات الشاهقة وتستقر في مكان مجهول، تشعر بارتجاج رأسها وانسحاب روحها، تفقد السيطرة على جسدها.. تظل تراوح مكانها وصخرة تهبط نحوها من قمة عالية.

يقترب صوت بكاء طفلة منها.. يدوي في الغرفة فتفتح عينيها. تنظر من النافذة نحو صمت المكان. امرأة تأتي نحو بوابة المستشفى وهي تحمل

طفلة على ظهرها، يفسح أحد الحراس لدخولها، تلتقيها في الطوارئ، طفلة في التاسعة من عمرها ببنية جسمانية جيدة، فقدت قدرتها على الكلام. تشرح والدتها ما حدث:

دخل مسلحون القرية وأطلقوا رصاص بنادقهم على المنازل، غادرنا المنزل من الجهة الأخرى، واصلنا المشي مع الناس. تذكر زوجي أوراق ملكية البيت والمزارع، فاضطر للعودة، وصلنا إلى مكان بعيد عن القرية، انتظرته طويلًا، مر كل الناس ولم يأت.. لم يلتق به أحد.. أخفيت ابنتي خلف صخرة كبيرة على جانب الطريق.. أمرتها ألا تظهر حتى تسمع صوتي.. عدت للبحث عن والدها.. جازفت بين الرصاص.. لم أجده ولم أجد ما عاد من أجلة.. وحين عدت إلى مكان ابنتي.. أناديها: سلوى.. سلوى.. سلوى.. هيا. لم تخرج.. ركضت نحو المكان خلف الصخرة، كانت ممددة هكذا ولا تستطيع الكلام.. حملتها على ظهري ومشيت بها مسافة كبيرة.. ثم تواصلت بشاحنة حملتني إلى التقاطع القريب.. حملتها على ظهري إلى هنا.

تفحصت راية الطفلة بنظراتها، فهمت ما تعرضت له الصغيرة، صعدت بها إلى غرفة الملاحظة العادية، أزاحت الحارسة ووضعتها على أحد الأسرة، توسلت الصيدلي بالدواء، تحتاج الصغيرة محاليل وأدوية أخرى، وتحتاج للراحة على السرير، لابد أن تدفع وإلا سيمر رجل الأمن ويلقيها خارج أسوار المستشفى حسب أوامر المدير العام الجديدة.

صـعدت راية إلى مكتبه، لا تفيد توسـلاتها حتى لو كان طلبها قيد حسـاب مبيت الطفلة وعلاجها خصمًا من الأجر الذي تستحقه.

"هناك حل آخر!"

"ما هو؟"

"تعرفين ما الذي أريده منك؟"

(.....)

"الأمر سـهل.. توافقين وسـيتحمل المسـتشـفى بقاء الطفلة لمدة ثلاثة أيام وعلاجها."

"كما تريد."

"أنا رجل أتعامل بالورق.. اكتبي التزامًا هنا بأنك سـتدفعين المبلغ نهاية الشهر.. احتياطًا، إذا رفضتي الخروج معي مثل هذا اليوم."

أرسـلت راية والدة الطفلة إلى الملحق لتبيت فيه، تغلق على نفسـها وتنام، بينما هي سـتبقى إلى جوار الصـغيرة، تنظر إلى خدها القمحي الذي يلتمع أسفل شعيرات رأسها الأسود. لا.. لن تقتلها بحقنة الموت الرحيم، لابد أن تكبر وتتعرف على مغتصبها وتستبيح دمه بطعنة سكين في قلبه، لكنها سوف تجهز على والدتها إن أتيحت لها الفرصة.

كانت راية قد توقفت عن التفكير بالقادم منذ فقدان والديها. أصبح خيالها لا يستشرف القادم بقدر ما يستوعب اللحظة القاتمة التي تسيل نحو المستقبل

بجرأة ووقاحة. قاع مبتذل عمقه، وسماء هي القاع نفسه. قاع وسماء في الوقت نفسه وليس كما مرت عليها مراحل عمرها السابقة؛ إذ كان يدور القاع الذي تعيشه في مرحلة ما فيصير سماءً لمرحلة بعدها.

في الحقيقة لم تكن تتخيل ولا للحظة واحدة أنها ستصل إلى قاع مجرد. غير أن حدسها وخيالها بدآ العمل بطريقة أخرى، صوَّرا لها الوطن متاهةً لا يفهمها أحد غيرها. بلاد كبيرة بجبالها وسهولها وأوديتها وبحرها وصحاريها، قلبها ومركزها المستشفى الذي نزحت إليه. أطياف دارت حوله في مسارات دائرية في مراحل زمنية مختلفة. في المسار الأول دارت تناقضات السياسة والمدنية والأيدلوجيا المتطرفة العابرة، وأفكار الضيق بالآخر. تسرب من هذا المسار إلى المسار الدائري الثاني خلاصة التناقضات، وهي طريقة تفكير قبلية لرجال السياسة والدين والدولة. تسربت الخلاصة إلى المسار الذي يليه، وطن يحكمه سرك السياسة ويدار بعقلية الامتيازات الخاصة، وأفكار نرجسية وصاخبة تُعارض بأنانية مطلقة، جوبهت بقمع واعتقالات وسجون تحرق الأجساد وتفسد العقول وتذل الكرامة وتسيل الدماء. وقعت خلاصة كل تلك المسارات في مكان مجهول وكونت المستشفى الكبير. أصبحت كل البلاد قاع، والمستشفى سماه العالية.

لا يمكن لومها على تفكيرها هذا؛ لقد أثبت حدسها في كل مرة صوابيته. صحيح أنها تقتل الأغبياء والسذج والأشخاص الذين لا يفهمون؛ ذلك لأنهم ما زالوا ينصدمون لوجودهم في القاع ويصطفون ضمن أوهام السلاح.

ترغب بقتل والدة سلوى وكل من تلمع عيونهم بالضعف والبراءة ولا يستطيعون الفهم. تمارس ردة فعل ضد الواقع المفروض بطريقتها. صعدت إلى مكتب المدير العام قبل حلول الظلام، نظر نحو المرأة التي تقف ثابتة أمامه الآن. جسد أسمر مغلف بملابس العمليات. تريد مجموعة من هذه الملابس. سحبها من يدها، سارت بجواره وهي تطبع الدم بأقدامها، صعدت معه السيارة بلا سؤال أو خوف، قطعا مسافة لا تتعدى كيلو متر واحد وسط هدوء كبير، فتح مخزن تتكدس فيه ملابس وأحذية وأدوات تجميل، ملأت حقائب التسوق بكل ما تريده. عادت إلى الملحق. فتحت سلوى الباب الداخلي. دلفت خلفها. رمت الأغراض على الفراش.

"أين أمك؟"

"لا أعرف أين ذهبت!"

بالتزامن مع لحظة غروب الشمس ألقت راية كل ما في الحقائب على الأرض، عملت على فرز غنائمها بطريقة لا مبالية: "هذه لك.. هذه لأمك.. هذه لي.." سرت رائحة الملابس الجديدة في الغرفة، هذه هي رائحة العيد في خيال الطفلة التي راحت تضم فستانها وحذائها إلى حضنها وتشم رائحته.

راية لا تحب أن تتذكر الروائح التي تضاعف الحنين، يبدو الحنين مثل محاكمة علنية لبريء بالاستناد إلى قوانين جائرة. أسقطت الملابس بعصبية من يد الطفلة. كومتها ثانية في حضنها.

"اغتسلي وارتديه."

في الخارج كانت القطط تعترك مع بعضها على ضوء إنارة باهت، ومولد الكهرباء ينفث دخانًا كثيفًا، بينما المدير العام واقف على بوابة حاوية المساعدات من الأدوية التي وصلت إلى المستشفى قبل قليل، ويدون في دفتر الكميات التي يدخلها العمال إلى المخازن.

٣٠

تمددت راية ليلًا على فراشها ساندة ضهرها إلى كوم من الملابس. لأول مرة منذ مغادرة المنزل ترتدي ملابس كاملة بطقم داخلي كامل، منامة كحلية معطرة، جوارب للقدمين وأربطة شعر. أضفت الملابس على روحها ثقة تبدت من خلال تفكيرها الآن وحركة المشرط بين يديها. بدت امرأة كاملة تستطع الفعل لا امرأة ضعيفة ونازحة.

تفكر: أين ذهبت سلوى ووالدتها؟ حين عادت البارحة كانت الصغيرة نائمة على فراشها انزلقت بجوارها وحضنتها، ووالدتها نائمة بشكل عرضي أسفل أقدامهما، وتشخر بصوت عالٍ. تفحصت ملامح الصغيرة على ضوء الهاتف، كانت تغمض عينيها بقوة، تقترب ملامحها من كل الانفعالات عدا الراحة. هي بلا شك الكوابيس التي تنال ضحايا الحرب، قد يكون من بينها ملامح ذلك المغتصب.

التقطت راية هاتفها. حركته بين يديها تتظاهر وكأنها تطلب المساعدة من شخص ما، لكنها كانت تشتاق إلى فعل ذلك. تتحول الأشياء العادية التي نمارسها كل يوم إلى تفاصيل مهمة حين نفتقدها.

وسط أصوات سيارات الإسعاف التي تأتي من الخارج وصوت المولد الجديد الذي حافظ على رائحة الهواء دون عوادم هذا الصباح، ورائحة

بحرية تصلها وبرودة الفراش أسفلها، كانت راية تفكر أن تعود إلى النوم أو أن تنزل سُلّم الملحق وتهبط إلى طابق الطوارئ لتناول فطور الصباح. نهضت كمسؤول خزينة بنك حين تذكرت أن لديها موعدًا مع المدير العام يجب الإيفاء به في المساء.

لفَّت شعرها ووضعت عليه غطاء العمليات، ارتدت بلوزة طويلة فوق منامتها، انتعلت حذاءً رياضيًا جديدًا ونزلت كغزالة تقفز من درجة إلى أخرى، كانت تظن إنها قد اقتربت في سلوكها من الأشخاص الذين يكبرون سريعًا بالأحداث وأصبحت أقل جرأة في حركتها.

دخلت إلى طابق غرفة العناية المركزة من الباب الخلفي. وجدته مفتوحًا، هبطت إلى الممر الطويل ومنه إلى البوفيه دون أن تلحظ أثرًا لطبعات قدميها الداميتين.

جلست متحمسة مع كبيرة الأطباء الهندية. طلبت منها كأسًا من الشراب الذي يحميها من الفظاعات، تناولت وجبتها سريعًا، ثم راحت تعدل المشروب بالماء وتتناوله ببطء وهي تدخن وحدها بعد مغادرة الطبيبة الهندية. تشاهد على شاشة التلفاز أخبار الحرب ورقعة امتدادها، ثم حديثًا في مؤتمر صحفي لمبعوث أممي جديد إلى اليمن. شاهدت تقريرًا لنازحين، أشخاصًا يهربون بشكل جماعي، وأطفالًا في المخيمات. شاهدت صورتها مع ماريا الصحفي وهما عائدتان من البئر تحملان صفائح مياه على

رأسيهما. توقفت الشاشة لثوانٍ على تلك اللقطة وكُتب عليها: "كارثة إنسانية محتملة".

في طريق عودتها إلى الملحق لتنام، مرت على إحدى كاميرات المستشفى في طابق العناية المركزة التي هي عين المدير العام، حدقت فيها عميقًا، تناهى إليها صوت الصيدلاني.

"يا إخوان.. لا يوجد أدوية.. الصيدلية فارغة."

اتجهت نحو الباب الذي يحرسه المسلحون، يحملون أسلحتهم بضجر، اصطدمت عيناها بكبير أطباء الجناح الخاص وهو قادم من البوابة متجهًا إلى طابق الطوارئ. مشت في حديقة المستشفى بحركة بطيئة تحاول الشعور بالمكان، والاستمتاع بأشعة الشمس التي تشعرها بخدر لذيذ. انتبهت إلى غياب المُزارع المسئول عن الاعتناء بالحديقة، ربما اختفى لعمل طارئ، لاحظت نباتات عطشى قد انكمشت أوراقها وضمرت. صعدت السلم الحديدي بدفعة نشاط مفتعلة وارتمت على الفراش.

لا تعرف إن كانت تزحلقت بنوم سريع أو بدأت نومها باسترخاء مريح إثر المحلول الذي شربت منه ثلاثة كؤوس. حان موعد خروجها مع المدير العام الساعة الثامنة مساءًا، وهي تشعر أنها لا تستطيع السيطرة على نفسها، تقرر النهوض فتعجز عن فعل ذلك، انزعجت من عدم قدرتها على التحكم بنفسها، تسبح في فضاء لا متناهٍ داخلها.

بعد محاولات كثيرة نجحت بالنهوض مستندة على جدار الحمام، تركت الماء يغمر جسدها من رأسها، ارتدت منامة جديدة، انتعلت حذاءها المريح، التقطت حقيبتها اليدوية وتأكدت من وجود المشرط. نزلت السلم مستندة على الدرابزين الحديدي. كان النذل ينتظرها بالسيارة خارج أسوار المستشفى، لا ترى أحدًا أمامها، لا حراس ولا مسلحين، ولا العربة العسكرية قرب البوابة.

فتح لها الباب بحركة خاطفة من يده وهو خلف المقود، صعدت وارتمت على الكرسي جواره، أعاد إغلاق الباب ضاغطًا على صدرها بمرفقه. تستمر محاولات السيطرة على نفسها، لا تريد إظهار استسلامها، يا لحظها في هذا المساء الماكر، وقعت في فخ ذلك المحلول وليس في فخه هو، هو أذكى منها بكثير.. حملها إلى سريرٍ ما، دخلا إليه مباشرة دون أن يلجا باب منزل، أو يعبرا غرفًا أو أية ملامح أخرى تُذكر.

نصب كاميرا أمامها، على سيقان ثلاثية، وذهب يعريها ثم صوب الكاميرا نحو جسدها العاري، وهي عاجزة عن التحكم بكيانها. أرادته ضحية وها هي أصبحت ضحيته. أشاح الكاميرا نحو زاوية أخرى، استباح جسدها، ثم حملها وهي عارية ورمى بها في جانب برميل مخلفات تتجمع حوله كل حيوانات الشارع. ابتعدت السيارة عنها والقطط تخمش جسدها والكلاب تسحبها من جرابها. استيقظت من الكابوس المفزع قبل ساعة من الموعد فزعة تحاول استيعاب اللحظة.

تجهزت للموعد بغريزة أنثوية، نزلت السلم هذه المرة بحماس وثقة، تُوازن تفكيرها وتحد حدسها، اكتسبت ثقة أكبر مع كل خطوة تخطوها أسفل ضوء الحديقة الأحمر، غادرت بوابة السور، ومضت تمشي خطوات إلى الأمام. اندفع بالسيارة وراءها. توقفت والضوء يغمُرها من الخلف، التفتت بجسدها كاستدارة خيال، لمح شفتيها الحمراوين وكحل عينيها وجفنيها يرفرفان تحاشيًا للضوء الساطع.

حرصت على فتح الباب وصعود السيارة وإغلاقه بنفسها. لم تلتف نحوه، كانت تنظر إلى الأمام وكلا يديها تحتضن حقيبتها، انطلقا في صمت الليل، أصوات أسلحة تأتي من أماكن مختلفة، ومن أصوات ارتداد الطلقات من السماء، تخيلت عدد الضحايا الذين سيصلون المستشفى الآن.

انحرفت السيارة يمينًا نحو طريق ترابي تتخلله حصى ونباتات صبارية على الجانبين، استمرت بالتقدم، وقبل الانحراف الأخير يسارًا انطفأ الضوء الساطع وبقي ضوء خفيف يشاهد به الطريق أمامه، إلى أن وصل بوابة بناء مطوق بسور عالٍ، هو الوحيد في المكان تقريبًا، فُتِحت البوابة الكبيرة وراية تعيد رسم خارطة الطريق التي أتت منها في ذاكرتها. توقفت السيارة بين سيارات حديثة عدة. دخلا باب المبنى إلى طاولة طعام جاهزة، اتخذا مقعدين متقابلين.

كانت راية متأهبة أمام صمته الغريب. ثنى كميّ قميصه الأبيض ثلاث مرات، تغضن وجهه، كأن الشيطان صعد من داخله وحل محله، استحالت

ملامحه إلى شــر كامل وهو ينظر إلى وجهها، اســتفزه ثقتها الكبيرة، توقعها ذليلة خاضــعة، قلب طاولة الطعام إلى الجهة الأخرى، تحاشــتها راية بخفة وتركيز واســتعداد، شــدها من شَــعرها وصــعد بها ســلمًا ملتف على عمود ودلف غرفة مظلمة إلى اليسار، رماها على السرير ثم أشعل الضوء. كانت تنظر نحو كاميرا منصوبة في الزاوية، فاجأها بصفعة قوية ثم قفز على جسدها وهي مستسلمة تفكر بحيلة مناسبة. هدوءها يستفزه أكثر، كان يرغب في كسر مقاومتها لتستلذ روحه المريضة، هذا هو انتصاره الدائم على الضحايا.

انتفض من عليها على وقع رنة هاتفه المحمول، جلس على حافة الســرير يجيب على المكالمة بإنصــات كبير. تبدو مكالمة من شــخص مهم. أدارت راية عينيها يمنة ويسرة دون أن تحرك رأسها، لمحت زجاجة أمامها، تنفست عميقًا وبحركة ســريعة التقطتها من عنقها مع صــرخة قوية وهوت بها على رأســه الذي كان قد بدأ بالاســتدارة نحوها، ترنح ولحقته بالمتاح من غطاء الســرير شــدّت به عنقه بقوة، انهار على الأرض وهي راكبة على ظهره، حتى شعرت باسترخاء جسده.

تفقدت الكاميرا ســريعًا، وجدتها لا تعمل، أخرجت المشــرط من حقيبتها اليدوية، أغلقت الباب خلفها، هبطت الســلم بهدوء وتركيز كاتمة أنفاســها، تجاوزت المســافة من أســفل الدرج حتى الباب، وقفت خلفه تســتمع وقع أقدام تقترب. فتحا الباب الذي اختفت خلف درفته، كانا رجلان يحملان السلاح، وقفا قليلًا أمام طاولة الطعام الملقية، ثم صعدا إلى الأعلى. انسلت

راية بخفة من الباب ومضت مسرعة خلف ظل السيارات، اقتربت نحو بوابة السور، كان الحارس أمامها يتحدث بالهاتف، فتح الباب الصغير جوار البوابة الكبيرة، خارجا منها واتجه يمينًا يبحث عن شبكة الاتصال، خرجت راية خلفه واتجهت يسارًا، اختبأت خلف أشجار مقلمة حتى عاد الحارس وأغلق الباب وراءه.

تركض بخفة من وراء كومة تراب إلى أُخرى عبر طريق طور التعبيد، لمحت ضوء سيارة قادمة من بعيد، اختبأت خلف أحد الأكوام حتى تجاوزتها، وصلت الطريق الرئيسي، مساحة مقفرة ومستقيمة لو سُلط ضوء السيارة من أوله سيرى إلى آخره. الوصول إلى المستشفى يلزم السير على الخط الطويل أمامها والانعطاف إلى اليسار بزاوية حادة وقطع الخط المستقيم، مضت تكمل ضلع المثلث الآخر وهي تركض بسرعة وخفة على ما يوفره ضوء القمر من نور، وصلت إلى منطقة بها بضع منازل شعبية متفرقة اجتازتها بحذر، ثم وجدت نفسها بعد ذلك وراء السور الخلفي للمستشفى منهارة تلتقط أنفاسها. تسلقت السور وقفزت منه إلى الحديقة، كان الباب الخلفي لمبنى المستشفى مواربًا. دخلت منه نازلة إلى طابق الطوارئ، صادف مجيئها ارتباك وصول مجموعة من الجرحى والقتلى من مناطق المواجهات، وجدت نفسها في غرفة العمليات بجوار الطبيبة الهندية حتى ساعات الصباح الأولى.

صعدت درج الملحق ببطء وحذر، وصل إليها صوت حركة في الأسفل، ظنتها القطط، لكن أصوات أنفاس جعلها تهبط ثانية لترى، كانت الفتاة ووالدتها تختبآن هناك.

"ذهبت لأبحث عن زوجي.."

حملت الصغيرة إلى الأعلى.. أغلقت الباب خلفها. وأغمضت عينيها في الظلام. لقد عادت من موت محقق. نامت والمشرط في يدها.

٣١

أصبحت راية أكثر حذرًا في الأيام التي تلت حادثة قتلها المدير العام. في عقلها ومنطقها تعتقد أنها لا تستحق الموت. بالطبع هي تفهم واقعها ودوافع الآخرين وليست ساذجة لتحسن الظن بهم أو تترجى خيرًا من أحدهم، والأهم أن لديها إمكانيات نفسية لتحارب وتدخل لعبة الموت وتجاري عبثهم بطريقتهم، لكنها تختلف بأنها لا تفعل ذلك من أجل مصلحة شخصية ولا يمكن لفعلها هذا أن يضيف المزيد من البؤس. هذه الثقة تتطلب الكثير من الحذر. هذا الاعتقاد هو الذي يحركها الآن.

نامت منذ الصباح حتى هذا الوقت عصرًا. كانت تحس بعرق يسيل من جسدها أسفل حرارة القيظ، تستلقي بفتور، تستغرق في تفكير عميق، فمها مفتوح يتحرك مع ما يعتمل في عقلها. سلوى شاردة أمامها، ربما والدتها تتعجب من هذه الشابة التي تدخن وتتصرف كالرجال. لو كانت فقط لا تدخن ستكون مثالية بنظرها.

من باب الشرفة يأتي تيار هوائي حار. كل الأشياء ناعسة في الخارج أسفل قيظ شديد، المزارع العجوز عاد يقلب تربة الحديقة، ونافذة مكتب المدير العام مفتوحة، يحرك الريح ستائرها.

جمعت راية كل ملابسها الجديدة ووضعتها في شنطة النزوح، ضغطت بركبتها عليها وأغلقتها بصعوبة. تكورت منتفخة ككرة ضخمة. لا عمل

لديها اليوم حسب جدول المناوبة، لكنها سوف تتحرك قليلًا وتعود بوجبات الطعام للطفلة ووالدتها، لبست طقم العمليات مع ارتدائها الحذاء الرياضي المغبر.

مشت على التربة المتقلبة والنباتات والأزهار الجافة الضامرة.

"النباتات تحتاج إلى الماء."

ترك المزارع المعول من يده في الضربة الأخيرة في التربة، استقام جسده المنحني، وقطرات العرق تتساقط من جبينه.

"لا يوجد ماء يا ابنتي."

ليس هنالك ماء لأنه لم يكن هناك مشروع للمياه. أوقفت الحرب السيارات التي توصل المياه إلى الخزانات لأن الشوارع مقطعة. أزمة المشتقات النفطية تظهر في الحروب. وهذا العجوز هنا يؤدي عمله بجد بما توفر، ودون راتب شهري. عاد إلى منزله خلال الأيام السابقة، ولم يجد عائلته، ربما نزحوا أو قتلوا. من يدري.

مشت في ظل المستشفى- الذي كان قد بدأ بالانكماش مع اقتراب ساعات الغروب- نحو الباب الخلفي، دخلت منه إلى طابق غرف العناية المركزة، تراقب امرأه كبيرة أمامها بثياب سوداء محمرة، تدفع الماء بعصا التنظيف إلى الأمام. وقفت راية في الزاوية تنظر أسفل قدميها. لم تكن تنزف. انتظرت

حتى جفت الأرضية ثم ذهبت نحوها. امرأة حزينة فقدت الاتصال بعائلتها الصغيرة. لا تعرف إلى أين غادر زوجها وأبناؤها. شبكة الهاتف تأثرت بالحرب والكهرباء تنعدم في الأماكن التي يفرون إليها.

امرأة أخرى خرجت من غرفة العناية المركزة تدفع أمامها جثة مسجاة على العربة، بالتأكيد إلى ثلاجة الموتى.

تواجدت معها في المصعد. وفي الأسفل عاونتها على دفع العربة عبر الممر الطويل. كان الضوء يتذبذب وصوت المولد يئن بسبب أحماله الثقيلة، وهي تدخل البوفيه.

وهي تهم بالدخول إلى البوفيه، رأت شابين يسندان ثالثًا بينهما. اقتربا منها:

"أين باب الطوارئ؟"

"من هنا."

أشارت ودخلت خلفهم للمساعدة، كانوا يرتدون ملابس محلية، يربطون شيلانًا على رؤوسهم ومعاطف ذخيرة معلقة على صدورهم. يبدو أن مريضهم لا يعاني من إصابة حرب. دفعا مبلغًا مقدمًا من المال في حساب المريض. قال أحدهم لطاقم التمريض الذين تحلقوا حوله:

"اهتموا به.. سنعود بعد أيام."

غادرت راية قبلهما، سارت إلى البوفيه، وضعت ثلاث وجبات صغيرة في يدها، خرجت من مكان دخول سيارات الإسعاف، تحدق إلى مجموعة من

الأطفال أمامها جالسين بجوار قناني مياه مخلوطة بمسحوق التنظيف ومحارم قطنية، بلا شك يعيلون عائلاتهم من تنظيف السيارات المنعدمة الآن.

كيف تجري يومياتهم في زمن الحرب؟

مضت غير راغبة بالحصول على الإجابة، فكل واحد منهم يمتلك قصة مؤلمة ليحكها ولا تشبه الأخرى. على الباب كان المسلحون يجلسون بإرهاق شديد في مواجهة غروب الشمس بملامح بؤس ظاهرة على وجوههم.

هم ضحايا أيضًا. ليس مهمًا أن تعرف كيف دُفعوا لحمل السلاح ولا الأُسر التي يعيلونها. غيرت رأيها ودخلت من جوارهم إلى طابق العناية المركزة، كانت شاشة التلفاز مفتوحة على قناة ناشيونال جيوجرافيك وبرنامجها الشهير "أمن المطارات"، صار العاملون في هذا المكان يحفظونه عن ظهر قلب. وفي مفترق الدرج الصاعد إلى مكتب المدير العام خُيّل لها أنه يحدق نحوها من شاشة الكاميرا.

خلال الأيام السابقة لم يفتقد أحد المدير العام، ظل مكتبه مغلقًا ومضاءً من الداخل. لم يطرق أحد من العاملين بابه. اكتشفت راية التقليد الذي يتبعه، حين يغلق الباب يعني هذا أنه لا يريد مقابلة أحد. أصبح المستشفى يُدار بالشائعات. تصل القرارات إليهم عبر خبر ينتشر بين العاملين كإشاعة ثم

يصبح حقيقة، لكن القرارات المهمة توضع على لوحة معلقة على زجاج الصيدلية من الداخل، وممهورة دائما بختم وتوقيع المدير العام.

استمر المستشفى كل يوم بالانعزال عن العالم المحيط به، نضبت خزانات المياه، نفدت عبوات الأكسجين، قل مخزون المؤن في الكافتيريا، تناقصت عبوات الصيدلية من رفوفها رغم شحنة مساعدات الأدوية التي وصلت سابقًا. نقص وقود المولدات الكهربائية. خصص أحد المولدات لجناح العمليات الخاص، وآخر لبقية أقسام المستشفى، ثم قلصت ساعات عملهما كجزء من عملية تقنين الوقود.

تنطفئ الأنفاس في غرف العناية المركزة حين تُقطع الكهرباء، وتصارع الأجساد في ظلام غرف العمليات. سالت مياه من ثلاجة حفظ الموتى، ثم خرجت رائحة مؤذية إلى العلن.

على لوحة الإعلانات في الصيدلية قرأ العاملون أمرًا جديدًا من المدير العام يقضي بحفر قبور في حديقة المستشفى ودفن جميع الجثث التي بدأت بالتعفن. خرج الأطباء والممرضون والعاملون من الردهات التي ينامون فيها وغرف الانتظار والممرات المظلمة التي أصبحت أماكن للتدخين والنوم، وحفروا بالمعاول وقطع الأخشاب والأيادي المجردة قبورًا أخذت كل مساحة حديقة المستشفى. ثم صاروا ينبشون قبرًا مستخدمًا ويضعون جثة أخرى إلى جوار الأولى.

من بين هذه القبور تمر راية ثلاث مرات في اليوم، تحاول ألا تدوس عليهم، تنظر إلى الأرقام التي وضعت على الشواهد، وتتوقف قليلًا عند قبور كتب على شواهدها بفرشاة طلاء:

شهيد رقم ٥٣

شهيد رقم ١٠٦

شهيد رقم ١٥٩

في ظهيرة يوم هادئ كانت راية واقفة في زاوية ممر الطوارئ تدخن وتسحق أعقاب السجائر تحت قدمها، في مربع ضوء أشعة الشمس الذي يتسرب من نافذة زجاجية علوية. دخل شابان كانت قد رأتهما قبل ذلك.

"أين مريضنا؟"

"مريضكم؟"

"نعم، المريض الذي أتينا به قبل أسبوع أو ثمان أيام."

"لم يعد هناك مرضى في المستشفى!"

"أين ذهبوا؟"

"فتحوا لهم قبورًا في الحديقة!"

"قبور! ماذا؟!"

"مجنونة هذه.. هيا نذهب لنسأل في الأعلى.."

أين سيذهبون للسؤال عنه؟ إدارة المستشفى مجهولة ولا أحد يعرفها، عشوائية النظام شديدة، كأن غرف العمليات والعناية والأقسام الأخرى

أجزاء بترت عن بعضهما. لا أحد يستطيع الإجابة عن سؤال ولا يوجد شخص معني بالإجابة. بهذه الطريقة لا أحد مسؤول هنا.

وصلت الأصوات من الأعلى. صعدت راية إلى طابق مكتب المدير العام. كان طاقم الأطباء والممرضات والعاملين والعاملات راكعين على الأرض في طابق العناية المشددة، أياديهم على ظهورهم وسلاح الشابين مصوبًا نحوهم. اختبأت خلف كوم من صناديق الأدوية الفارغة خلفها، تنظر من شق صغير نحوهم في الأسفل.

"أين مريضنا؟"

تمر فوهة البندقية على الرؤوس فتهتز الملامح وترتجف الأجساد على مقربة من الحراس المدججين بالسلاح.

"إن فكرتم بإطلاق النار ستتطاير الرؤوس هنا." قال الشاب الآخر.

أُطلقت رصاصة تحذيرية مرت من بين رأسي عامل وممرضة، ارتمت على إثرها كل الرؤوس على الأرض. ارتفع صوت طفل من العاملين.

"لحظة.. أنا أعرف."

"تكلم.."

"مريضكم أتى قبل أسبوع وكان مصابًا بالتهاب الزائدة."

"أين هو؟"

"صعدوا به إلى الجناح الخاص."

"هيا تقدم أمامي إلى هناك."

"لا أستطيع."

"هل تريد أن ينفجر رأسك الآن!"

"لا أحد يستطيع الصعود إلى هناك.. المصعد مشفر.. والشفرة بحوزة ممرضة واحدة تعمل في الجناح.. لا أحد يعرفها وجهها دائمًا مغطى بقناع."

"سنعود لزيارتكم."

سحبوا معهما طفلين من العاملين، تجاوزا بهما بوابة السور والسلاح مصوب على رأسيهما، سُمع صوت إطلاق نار من ناحيتهم. كانا قد صوبا على رأسي الطفلين وغادرا بسرعة. قتل الأبرياء أمر معتاد في زمن الحروب، ولا يثير أية تساءل، خصوصًا حينما يكون الغريم موارب. أضيفت جثتين إلى أحد القبور المفتوحة، ورقمين على شاهد خشبي مغروس في التربة.

قللت شائعة انتشرت بين طاقم المستشفى من تهديد الشابين، واستبعدت عودتهما، فقد انتقما لمريضهما من شخصين، وهذه عادة قبلية معروفة تصفوا بها النفوس. لكنها في الحقيقة لا يمكن أن تصفوا إلا بالعثور على الجثة.

٣٢

عادت راية من المستشفى البائس ظهرًا، وضيق شديد يعتري روحها. بدت حقيبة ملابسها المكورة جوارها مستفزة، وضوء القنديل أعلى رأسها كورقة نبات ظامئة. المنظر من شـرفتها يطل على مسـاحة قبور غطت الحديقة، مدافن أجسـاد محروقة وأعضـاء مبتورة وملامح ضـائعة، بدت من مكانها كحارس جزيرة الأموات.

كدَّر خاطرها غياب سلوى ووالدتها مرة أخرى. وضعت وجبتيهما جانبًا. إن لم تعودا تسـتطيع التهام الوجبتين وحدها. درجة الحرارة تبخر المتجمد وتسيل الحلوى في قلب الرغيفين.

دخل الظلام سريعًا وكأن شمس ذلك اليوم شعرت بالملل فجأة، ولملمت ضوأها وارتمت خلف الأفق. كانت راية تحرك المشرط بين أصابعها حين حدث انفجار قريب منها، اهتزت الغرفة على إثره وسمعت ارتجاج السلم الحديدي الرتيب. تبع ذلك أصوات إطلاق نار كثيف.

فورًا رمت بنفسـها داخل الحمام، المكان الآمن والمحمي. تُخمن من هذا المكان الضيق مصدر إطلاق النار، إطلاق من الخارج يقابله رد من الداخل، الحراس يقومون بدورهم. في أفضل الأحوال لن يصمدوا طويلًا، ذخائرهم محدودة وهم منهكين بلا قائد ولا اهتمام. لا شيء متماسك يدافعون عنه، يصبح إطلاقهم النار بحثًا عن مخرج لأرواحهم.

تتوالى الانفجارات وانهمار الرصاص. هدأت الاشتباكات بعد وقت طويل بالتدريج حتى توقفت نهائيًا. ضج كل من بداخل المستشفى ثم صمتوا فجأة، شعرت وكأن الموتى استيقظوا من قبورهم وطردوا المسلحين من المكان، وخنقوا الجميع ثم عادوا إلى نومتهم الأبدية. في تلك اللحظة ركلت قدم بقوة باب الملحق المفتوح، دوى الصوت كقنبلة يدوية في أذنيّ راية.

"لديكم خمس دقائق لتغادروا من هنا."

خرجت راية من الحمام رافعة يدها.

"أنا.. طبيبة."

"أمامك ثلاث دقائق للمغادرة."

لم ترتبك. حملت حقيبة النزوح وألقتها على ظهرها، وعند الباب التقطت حذاءها الرياضي. نزلت والمسلح خلفها يسوقها بسلاحه، مشت إلى حيث يخرج الأشخاص من الباب الخلفي للمستشفى، يتدافعون للخروج من ثقب كبير في السور العالي أحدثته ضربات قذائف متوالية. اخترقت بحقيبتها الأجساد لتحجز مكانًا لها بينهم يقودها إلى الخارج. أحست بيد تجذب ملابسها بقوة، كانت سلوى، تمعنت في وجهها أسفل ضوء غير ثابت، كانت تبكي بصمت مخيف ودموع غزيرة.

"تمسكي بي ولا تفلتي يدي مهما حدث."

دفعت راية جسدها إلى الأمام وخرجتا من ثقب السور. توقفتا لبرهة والهاربون يهرولون أمامهم. جانبت الطريق قليلًا، ألقت الحقيبة على الأرض، انحنت تمسح دموع الصغيرة والأجساد تصطدم بها.

"أين أمك؟"

"في غرفة العمليات".

في تلك اللحظة أطل مسلح من الثقب يوجه سلاحه نحوهما.

"لم يتبق أحد.. غادرا من هنا."

انتعلت حذاءها سريعًا، ثم راحتا تسيران في الظلام، تتبعان الأجساد وتستأنسان بالأنفاس. للوصول إلى الشارع الأسفلتي حيث سبقهما الجميع، كان عليهما الالتفاف عبر مساحة خالية من أربع خطوات، التوت قدم راية وهي تهرول عبر المنحدر الصغير. مشت وهي تعرج.

تمضيان على الأسفلت بغير وجهة، لا تعرفان إن كانتا تتقدمان إلى الأمام أو تعودان إلى الخلف. في داخلها تزدري كل هؤلاء. لم يتعلموا الدرس وها هم فرحين بنجاتهم من الموت في المستشفى رغم أنهم بلا هدف يذهبون إليه.

نظرت راية إلى شخص على جانبها يزيل النقاب، التقت عيونهما لثوانٍ ثم ذهب يركض أمامهما بسرعة رياضية لن تستطيع اللحاق به في كل الأحوال.

"هذا الرجل الذي أدخل أمي غرفة العمليات."

"أين هو؟"

"هذا الذي ركض أمامنا.."

"احكِ لي."

"بعد خروجك كان يأتي إلى الملحق كل يوم. قال إن أمي مريضة وتحتاج إلى عملية جراحية، وأنا أيضًا. قال إنه سيتحمل تكاليف العملية إن لم نخبرك."

٣٣

قبل أن تستيقظ راية لم تفهم في أية زاوية من ركام المنزل الشبيه بمنزل جدها ارتمت ليلًا ونامت. كانت مجهدة وقدمها متورمة. حين سارتا على طريق الأسفلت ليلًا تحاشت المشي خلف المجموعة الأكبر، سلكت طريقًا معاكسًا، تقدمت في شوارع خالية تقطعها عربات محروقة، ومتارس ونقاط تفتيش. بعد اختفاء أضواء القناصين لم تكن تعرف أنها تجاوزت أخطر مناطق المواجهات التي بردت قبل مرورها ببضع دقائق. لقد نجت بصلابة قلبها.

توغلت وسلوى خلفها داخل المدينة، وسط صمت مخيف أسفل نجوم السماء، زوائد البيوت والواجهات تبدو كأشباح برؤوس غريبة ترعب الطفلة. رمت الحقيبة في مفترق طرق لا بشر فيها. أمسكت الصغيرة بيدها وحثتها على التقدم. اختارت المشي نحو المئذنة التي استأنست بها. دخلتا حيًا مخيفًا، ثمة جامع على يمينها وعلى يسارها منزل منهار. اقتربت تتبين المكان على ضوء الهاتف، يبدو ركام منزل جدها على الأرض، بدت وكأنها تتخيل ما تراه وتعيشه حقيقة.

اعتلت الركام على ضوء الهاتف، هوت بالحقيبة في زاوية الجدار، ارتمت الطفلة على الحقيبة ثم ارتمت راية بالقرب منها. تفتحت

عيناها نهارًا على ركام أمامها، اعتدلت جالسة على حائط تعرفه، في تلك الكوة أعلى رأسها كانت جدتها تضع مفتاح المنزل وحقيبتها اليدوية حين تعود من الخارج.

نهضت واعتلت الركام بصعوبة، حولها ما تبعثر وتبقى من أدوات وأثاث المنزل. كان الجامع خلفها وهي ترى أجزاءً من الغرف العلوية وحيطانها. كان المنزل قد شُق نصفين بصاروخ لم ينفجر. تراه الآن أمامها وقد أحدث حفرة كبيرة في الموضع الذي انتهى إليه.

جلست تضمد قدمها بقطعة قماش نزعتها من أحد الملابس المتناثرة. صعدت عبر السلم إلى الدور الثاني ومن هناك نظرت نحو الركام والجامع بصحنه الفارغ، والحي الصامت المخيف، وبقايا سيارات محترقة على امتداد الشارع، ونوافذ يظهر منها سواد خلفته الحرائق.

هبطت بحذر على السلم المتراكم عليه أغراض المنزل وفي يدها صرة كبيرة من حبات القمح هو ما وجدته في نصف المطبخ المنهار. تناولت صفيحة فارغة ثم نزلت من على الركام إلى الجامع وعبأت الماء فيها. عادت إلى إحدى الغرف المنهارة، أوقدت نارًا بين حجرين، ثم وضعت قِدرًا كانت قد أعادته إلى هيئة مقبولة بالضغط عليه بكل قوتها والضرب داخله بقطعة خشب. وضعت بداخله القمح ثم صبت الماء. كان هذا غذاءهما في الأيام الأولى.

لم تفكر راية بمكان آخر يمكنها الذهاب إليه. على أنقاض المكان كان شعورًا يغزوها بأنهما ستموتان هنا. سيأتي أشخاص في يوم ما وسيجدون جثتين لشابة وطفلة متحللتين على الهيئة التي نامتا عليها.

الصمت سيد المكان. مع مرور كل يوم تشعر راية بوجودها غير الحقيقي. في وقت مبكر من إحدى الأيام غادرت مكانها وتجولت في الحي، نفذ إلى أنفها روائح متعفنة، رأت كلابًا مشردة- وكل كلاب البلاد مشردة- مستريحة على الأرصفة ذهبت هيبتها بفقدانها النباح. هما أيضًا لا تستطيعان العيش من دون البشر رغم أن البشر لا يتركونهما بسلام. وفي طريق عودتها دخلت دكان طفولتها من الباب الموارب، جلست خلف الطاولة على الكرسي المدرسي الذي يجلس عليه البائع العجوز بقبعته الزنجبارية وشاربه الأسود الكثيف، تتأمل صورته بتلك الهيئة على الحائط.

التقطت بسكويتًا وبطاطس وحلوى، نفضت الغبار ووضعتهم على الطاولة، فتحت باب الثلاجة الزجاجي، أخرجت منها زجاجات عصائر ومياه، وضعتهم في شنطة التسوق، وبحركة غريزية سحبت درج النقود. رتبت مجموعة من العملات الورقية بفئاتها المختلفة من القيمة الأعلى وحتى الأدنى، وضعت الحصيلة في حقيبتها اليدوية.

توقفت عن تجرع شربة القمح. في كل صباح تذهب مع سلوى للاغتسال في حمامات الجامع، تلبسها ملابس جديدة، تجدل لها شعرها وتمنحها ورقة

نقدية، تذهب بها إلى الدكان، تشتري ما تشتهي ويعودان للجلوس على ذلك الحائط يتحدثان ويلعبان ويأكلان. من مخبأهما خلف ركام المنزل وبجوار جدار صامد، تقترب الشمس منهما خلال منتصف النهار وتطاردهما إليه في أعلى منسوب لمدها، وفي الليل تنامان وهما تنظران إلى الجزء المقابل من السماء المكشوفة.

تتجول راية كل يوم في الحي مع سلوى، وبين أصابعها المشرط، سلاحها الوحيد في وجه المجهول. تنامان بعد اختفاء الشمس مباشرة وتستيقظان مع خيط الفجر الأول. حيٌّ كامل آل إليهما. تكتشفان بوفيهًا، تدخلان وتصنعان الأكلات المحببة، ثم تجلسان على كراسي مقهى اكتشفتاه وترتشفان الشاي.. تذهبان إلى حديقة الحي وتلعبان المرجيحة، والصمت الفارغ يؤنس ضحكاتهما.

اكتشفتا متجر ملابس وأحذية. هوت راية بقضيب حديدي على زجاج الباب، وخرجتا بأزواج من الأحذية وبعض الملابس. صادفت محل كوافير، أجلست الصغيرة ومضت تسرح لها شعرها.

ومع اكتشافها لمكتبة زادت متعة راية بطقوس قراءة مختلفة. تقرأ في كل مكان، في الرصيف وفي المقهى وفي الحديقة، بيد أن أغرب أوقات متعتها كانت تجلس فيها على الأسفلت خلال النهار وتقرأ لساعات طويلة حتى يعيدها الظلام إلى مخبئها.

كانت أجمل أيام عاشتها راية في حياتها، شعرت أنها عاشت حياة منظمة، حياة أم طبيعية لا تفكر بما ستطهو في الغد، ولا بملابس الطفلة وأحذيتها التي ستتمزق، ولا تنتظر ما يتبقى من راتبها الشهري لتقرر إذا كانت طفلتها تستطيع الذهاب إلى الحديقة. لم تشغلها متطلبات البيوت، انطفاء الكهرباء، انعدام الغاز المنزلي من الأسواق، توقُّف مشروع المياه، نزق الأزواج وإدمانهم على القات.

تستيقظان مبكرًا، تتناولان فطورهما، تقرآن، تلعبان، تطبخان، ترتديان أطقمًا جديدة كل يوم.. جربت راية ارتداء ملابس جريئة في الشوارع كتلك التي ترتديها النساء في الأفلام الأجنبية، أطقم ضيقة.. تنانير قصيرة.. بلوزات مكشوفة من الأعلى.. أطقم رياضية. ملابس تُعرض لتُرتدى في غرف مغلقة أو مناسبات خاصة تقتصر على النساء. تتحدث مع الباعة الافتراضيين، تُلاطف الشباب في الشوارع وتبتسم بحرية ولا تخاف أن تفهم ابتسامتها بشكل خاطئ. رغم الحرية التي وجدتها في غياب الناس، إلا أنها بدأت تشعر تدريجيًا بعدم الراحة في الحي الخاوي.

اكتشفت فندقًا متواضعًا. أخذت أغراضها الكثيرة، ملابس وأحذية وشنطة النزوح، كسرت الباب، ودخلت إحدى الغرف مع سلوى. أصبح نومها مريحًا. تحتضن مخدة حقيقية، وتستيقظ كأنها في منزلها.

تشبعت من الأشياء التي افتقدتها، لم تعد تشعر بالجوع، كست جسدها بالملابس، نامت على سرير مريح. بدأت تكتشف الدمار في الحي وترى

البؤس أكثر وضـــوحًا، ما عاشـــته لم يكن ســـوى أحلام يقظة، جزء غير محســـوب من أيامها في الواقع الحقيقي. تريد رؤية الناس وأن تعيش حياة حقيقة بين الطيبين والأشـــرار، تريد أن تعيش واقعها الطبيعي تحارب فيه بالمشرط وقناني الموت الرحيم.

ســـمعت صـــوت دراجة نارية في الحي توقفت أمام الجامع، نزل منها رجل مسلح واختفى بين الأنقاض.. وفي طريق عودته أوقفها.

"ماذا تفعلين هنا في هذا المكان الخطر؟"

"عدت إلى بيت جدي."

"من جدك؟!"

"الحاج كيالي."

"كيالي؟"

"نعم.."

"أنا ابن عثماني.. محمد عثماني.."

(...)

"يـا أختي.. هـذا المكـان مطوق بـألغـام وعبوات لم تنفجر بعـد.. وقريبًا سـيكون مسـرح مواجهات.. اجلسـا في مكانكما ولا تتحركا حتى الغد. سأعود لكم في الصباح وأذهب بكما إلى مخيم آمن.."

صعدت راية سلم الفندق، تتأكد عبره من وجود بحر. كل الطرق مسدودة. جلست على الأرضية العالية تتفقد هاتفها بحثًا عن إشارة، ثم هبطت إلى الأسفل. تركت سلوى لتنام وغادرت وحيدة نحو الحي. تسوق مفاجئ تتجهز فيه لرحلة النزوح القادمة إلى مخيم مجهول. عثرت على حقيبة كبيرة في متجر الملابس، جرتها خلفها من مكان إلى آخر، تضع فيها ما ستحتاجه في رحلة النزوح الجديدة. كانت تحاول جرها إلى داخل الفندق، تذكرت أن لا بشر سواهما، تركتها على الرصيف أمام الفندق إلى الغد، وانشغلت بالقراءة حتى حل الظلام.

٣٤

وصلنا مخيم الفجوات للنازحين واللاجئين. قال العثماني.

ألقت راية بالحقيبة الثقيلة بشعور انتصار صغير، ارتمت على الأرض، عضلات جسدها تهتز من الإنهاك، وأزيز المحرك الحاد لازال يصفر في أذنيها، انتبهت إلى حذائها وقد التصق باطنه على ماسورة الدخان، كان وجه الطفلة محمرًا يغالب نومًا كثيفًا في عينيها.

في وقتِ مبكرِ من الصباح كانتا تَقِفان أمام الفندق في الحي المهجور وسط أشباح الدمار على الموعد. سمعتا صوتًا قادمًا ضخَّمه فراغ الأبنية المنهارة والهدوء الشديد. بدا مثل طائرة حربية. بعد قليل أقبلت الدراجة النارية المنتظرة وتوقفت بجوارهما. أنزل السائق قدميه على الأرض وبدل وضعية سلاحه الآلي بشكل عرضي على صدره. لم تكن راية تتوقع أن يأتي بهذه الوسيلة، لكن الشوارع مسدودة في الجوار والألغام وضعت في كل مكان يتوقع أن تمر منه عربات، والطريق الوحيد الآمن لا يتسع إلا لدراجة نارية.

صَعدت الطفلة أولًا بحقيبة النزوح، توازنت راية خلفها والحقيبة الجديدة في حضنها، مضت الدراجة النارية تضطرب بهم. تُحاولَ رفع رأسها من الخلف فتتمايل.

"توقف.. توقف.."

"اترك سلوى تركب أمامك وسأضع مكانها حقيبتي."

".. في المخيم يتوفر كل شيء."

أصرت راية على حمل الحقيبتين، فهي تعرف أن المخيمات لا يتوفر شيء فيها. وتدرك أيضًا ما ينتظرها من صعوبات، يكون فيها البقاء لمن يملك قلبًا قاسيًا ونفسًا مريضة، ومخزونًا من الحيل والألاعيب. تعتقد أنها الحلقة الأقوى والأكثر مرونة في اللعب، لم تعد تملك شيئًا لتخسره ولا طموحًا لتناله، وهي بهذا مدربة على أصعب الظروف المادية والنفسية.

تمضي الدراجة النارية في أزقة صامتة، يكبر صوت المحرك فيها مثل وحش. تنزل راية وسلوى أمام أكوام الأتربة، تجران الحقائب إلى الاتجاه الآخر وتعودان للصعود ثانية. كان السائق يعرف خارطة الطريق بدقة. كلما اقترب من نقطة مسلحين تتناقص السرعة إلى الصفر، لا تعرف كيف يسمحون له بالمرور بهذه البساطة!

سلكوا الشارع المؤدي إلى المستشفى الكبير، عرفته راية من رائحة الهواء، وشكل التفاصيل في نطاقها. كان المستشفى على هيئته السابقة، كأن حربًا لم تدر فيه، ولا تجار أعضاء بشرية استوطنوه.

بصوت عالٍ قال العثماني:

"اكتشفوا فيه عصابة تتاجر بالأعضاء.. مجرمون لا يخافون الله."

استمر صمت راية، وهي تنظر جانبًا في الطريق الذي سارت فيه مع المدير العام وعادت منه سالمة.

تعامدت الشمس على رؤوسهم، دخلت الدراجة النارية مناطق غير معبدة، اضطربت فيها على الحجارة. نفدت طاقة راية، كادت أن تلقي بالحقيبة. نزلوا للراحة أسفل شجرة شوكية جرداء، مشهد صارم في محيط صحراوي، قتامة جبال وصخور سوداء وأرض تفتقر للخصوبة وشعور بائس ينزل الهزيمة بالأرواح.

شحذت راية طاقتها. لن تطلب التوقف حتى وصول المخيم. ستحتمل ألم عضلات ساعديها، ووجع إليتها وضيق العَرق وسط حرارة تمتص كل برودة في الجسم.

توقفوا بعد ساعات.

من مكانهم تُرى خيام بيضاء مرتبة بشكل عمودي ورأسي، بأحجام متساوية على أرض مستوية. يحمي المكان جبل شاهق من جانبين، ترقد في حضنه تلة صغيرة، كانت مقلع حجارة قديم. مكان معزول عن الحياة. لم ترَ بعد أي نازح. لولا الخيام التي تدل على المخيم لاستبقت طعن الرجل وسحق رأسه بحجر حاد.

سارت خلفه صامتة وهادئة تجر الحقيبة الكبيرة بيد وصعوبة على الأتربة والحصى الصغيرة، وباليد الأخرى تجر حقيبة النزوح. والطفلة صامتة

مطيعة خلفهما. بدت راية كشـخص قوي مدرب ومدعوم، جاء لينفذ مهمة مكلف بها، لم تبدُ كنازحة أتت للبحث عن مأوي في المخيم. اكتسـبت شـعورها هذا من إدراكها للحياة في الخيام التي تُظهِر منظرًا شـفافًا وعادلًا على عكس ما تبطن.

سـلكوا متاهة بين الخيام، ثم سـاروا نحو اليمين إلى خيمة في قلب المخيم، لم تكن تُمَيز من بعيد أنها بهذا الحجم الكبير، مسـاحاتها توازي مسـاحة أربع خيام بيضـاء، توقفتا أمامها. خرج العثماني منها بعد انتظار طويل لراية ومرافقتها أسفل الشمس الحارقة.

"سجلت اسمك في كشف النازحين.."

"مدير المخيم أخي."

"سيخرج الآن ويعطيك خيمتك.."

"انتظريه.. سأذهب لعمل مهم."

خَرَجَ رجُلٌ بخيمة مغلفة ورماها عند قدميها. أحمق بشـنب كث عريض ووجه غليظ.

"انتظري حتى يمر أي نازح من هنا واطلبي منه مسـاعدتك في تركيبها." أضـاف وهو يشـير إلى خلفها قبل أن يسـدل الباب: "انصبيها في أي مكان ما عدا في هذا الاتجاه."

سحبت راية منزلها الجديد خلفها بيد وبالأخرى الحقيبة الكبيرة. جَرّت سلوى حقيبة النزوح. تتقدمان بقوة وإصرار نحو الاتجاه الذي طلب المدير عدم نصبها فيه. بدت الخيام هناك كمنازل عشوائية في حافة المدن المنظمة، خيم بألوان مختلفة، ومتقاربة بشكل غير منظم، رمت خيمتها في المكان الفارغ. صادفت مرور شخص أسمر طويل ونحيف كجذع شجرة بابايا. كان أحد الذين نظفوا طبعات دم أقدامها في ممر المستشفى حين مر كبير أطباء جناح العمليات الخاص.

"ماذا تفعلين هنا؟"

"ساعدني في نصب الخيمة هنا."

"مدير المخيم لن يسمح لك."

"لماذا؟"

"قسَّم المخيم بين اللاجئين والنازحين.. ممنوع نصب خيام النازحين بين خيام اللاجئين."

"أريد نصب خيمتي في قلب الخيام الملونة."

"كما تريدين.. في جوار خيمتي مساحة مناسبة."

حَمل خيمتها، وسارتا خلفه. اصطدمتا دون قصد ببعض الخيام. كانت هذه الزاوية من الخيام الملونة تمتد إلى جزء الجبل الذي يشبه سورًا شاهقًا، يُصعِّب من مشكلة ترتيب المكان، ويسهم ضيقه في فعل ذلك.

نصبت الخيمة على دكة مرتفعة مُلئت بتراب ناعم، طراوته أشبه برائحة قبر. أدخلت راية الحقيبة الى الداخل، قضم حجمها ثلث مساحة الخيمة، اضطرت لوضعها أسفل أقدامهما كغطاء على الباب. كان بهما تعب حياة كاملة، ناولت سلوى مخدتها، ووضعت هي مخدتها وارتمت عليها، اصطدمت أقدامها بالحقيبة، فنامت منحنية. في تلك اللحظة أضافت الأشخاص الذين ينزحون بلا مخداتهم الخاصة إلى قائمة الذين يستحقون الموت.

يكون القيظ داخل الخيمة أشد من خارجها. في كل ليلة كانت تفتقد شيئًا وتتمنى لو وضعته في الحقيبة الكبيرة: شموع، قناني مياه، كتب. وحدها المنازل مستودع الحياة، ستر وغطاء. تمر في شريط ذاكرتها الأخبار التي قرأتها في صحف كشك والدها، كم من البيوت أحرقت أو دمرت أو فُجِّرت بسب خلاف سياسي أو قبلي. فقدان المنازل طمس لوجود الإنسان وشطب لكيانه.

٣٥

وسّــط ظلام دامس في الخيمة ركلت راية الحقيبة الكبيرة أســفل قدميها. فتحت عينيها قبل قليل، تســتمتع بلذة مد جســدها بعد نوم طويل. كانت الركلة قوية، سال دم من أصبعها.. رفعت قدمها المصابة بيديها وأخفضت رأسها لتنفخ في الجرح وهي الطريقة الوحيدة المتاحة لتخفيف الألم. تحرك أصابع يدها في اهتزاز قوي لمجاراة وخز عنيف في صميم الجهاز العصبي.

حتى الآن لا تعرف أين هي! كيان خفيف وســط الظلام في مكان لم تتعرف بعد على وجودها فيه. تتحسس ما حولها. أسفلها غشاء رقيق موضوع على تربة ناعمة، ملاءة ملتفة عليها ومخدة ترفع رأسها. مكان لا يشبه المستودع الذي نامت فيه أول ليلة نزوح، ولا بلاط المدرسة القاسي، ولا مخزن بيت جدها، ولا حائط المنزل المتهدم. لا يشبه فندق الحي الخالي. لقد صادقت الظلام في حياتها منذ أول حرب في طفولتها حتى الآن. مع كل حرب كانت تتناقص عدد الســاعات التي يعمل فيهن التيار الكهربائي، لكن هذا الظلام شــديد. أرادت الوقوف على قدميها فصــدها ســقف الخيمة وأجبرها على الانحناء مرتدة إلى مكانها.

"أنا في الخيمة الآن."

"أريد الخروج إلى الحمام." طلبت سلوى بعد سماع صوتها.

أزاحت راية الحقيبة الكبيرة من باب الخيمة، استقامتا أمامها في المساحة التي شبهتها سلوى بجسد جمل أسفل ضوء النجوم. حشرات الليل تعزف من حولهما بصوت مستفز، وهي تحاول الإنصات لحديث مجاور بلغة لا تعرفها. تقترب من أنفها رائحة دخان. ذهبت بالطفلة من مساحة رأس الجمل فهي مساحة كافية للعبور من خلالها. بالكاد تستطيع العبور بين الخيام الضيقة، تصطدم بالأوتاد، تتعثر وتميل على خيمة ما، تشعر وكأنها لامست الأجساد والرؤوس داخلها.

في الليل يصبح لون الخيام موحدًا، تتمدد مساحتها وتتقلص فرص العبور براحة حتى آخر خيمة ملونة أسفل الجبل أمامها. توقفت قرب حلقة من اللاجئين.

"أين الحمام؟"

"لا يوجد حمام هنا."

"أين نذهب؟"

"إلى الجبل."

"من هنا لن تستطيعي الصعود."

"عودي إلى الجهة الأخرى واصعدي قليلًا حتى تختفين خلف الأحجار الضخمة."

"أين خزان المياه؟"

"في الجهة الأخرى أيضًا."

طوقت سلوى من كتفها. تجاوزت بها خيامًا أخرى منفردة إلى المكان الشاسع على حصى وأحجار صغيرة.

"اجلسي هنا وافعليها."

(...)

"هيا لن يرانا أحد في الظلام."

ربما أن أسفل هذه الحجارة الصغيرة تتواجد العقارب.

جلست راية أيضًا وأفرغت ما بداخلها. وفي طريق العودة اصطدمت بخيمة شاردة متخفية في الظلام.

"اللعنة.. من أين نبتت هذه الخيمة!"

عادت إلى مكان الشباب الذين حدثتهم قبل قليل. من هناك وبخط متعرج قطعت المسافة الضيقة بين الخيام حتى وصلت إلى مساحة الجمل. فتحت الحقيبة الكبيرة، أخرجت قطعًا من الشكولاتة وتناولتاهما بشراهة مع عصير معلب بمذاق مفقود. تخرجان مرتين يوميًا لهذا الغرض إلى أبعد نقطة في البراح، قبل شروق الشمس وبعد غروبها بقليل.

بحث عنها مدير المخيم خلال الأيام الأولى لوجودها. كانت مجهولة واسمها غير معروف. ارتبكت عيونه المتخفية في المخيم. عانوا طويلًا حتى وجدوا خيمة امرأة بهذا الاسم.

"ألم أقل لك لا تنصبي خيمتك في ذلك الاتجاه؟"

"لا تفرق."

"تفرق عندي.."

"بماذا تفرق معك؟"

"أنا الوحيد الذي يقرر هنا."

"وأنا أرفض الاستماع إلى قرار المقرر الوحيد."

"ستندمين."

"لا تقلق."

٣٦

قبل أن تصل قافلة المساعدات الإنسانية إلى المخيم، كان النازحون يمتلكون بطاقة سلال غذائية خضراء، واللاجئون يمتلكون بطاقة سلال غذائية حمراء. وزعت بطائق أخرى للنازحين واللاجئين الجدد واستثنيت راية. حملت نفسها نحو الخيمة الكبرى والدم يغلي في أوردتها، تسحب نعلها على الأرض وتلف رأسها برداء، انضم خلفها مجموعة من أطفال المخيم الفضولين. حين وصلت الخيمة الكبرى وجدت مدير المخيم يجلس على كرسي مدرسي، ويقلب أوراقًا بين يديه ويضرب في آلة حاسبة.

"أين كرت سلتي الغذائية؟"

"في المرة القادمة.."

"متى ستكون المرة القادمة؟"

"دورك بعد شهر."

"أخيط معدتي لثلاثين يومًا؟"

"تصرفي."

"سأتصرف."

"ماذا تقول القحبة؟"

هجمت راية عليه، أطبقت يديها على عنقه بكل قوة، احمر الدم في وجنتيه، وعيناه تتسعان، ثم استرخى كجسد يتدلى من حبل مشنقة، يتلوى بملامح كل القتلة واللصوص الذين تحدثوا وكتبوا على صفحات الجرائد، رأت في ملامحه كل القادة والوزراء ومشائخ القبائل وأحزاب السلطة، رأت سالم، وعمو الدكان، ووجه كل الحروب التي مرت. أرخت يديها بقوة أيادي تسحبها من الخلف، تركته يسعل على أوراقه التي تناثرت على الأرض.

عبرت درب الخيام المنتظم ومن ثم الأزقة الضيقة بطاقة عالية. كانت تعرف أن سلطته لاتزال في مرحلة الزيف الأول ولم يتمكن بعد من جذب متعاونين وتسليحهم وبناء سجون، لكنه بدأ في بث الإشاعات الفتاكة. كان قد استطاع وبسهولة استمالة بعض الأشخاص بسلال غذائية يسدون بها جوعهم؛ تذهب النساء عن الطريق التي تمر بها راية، يبتعدن عن الأماكن التي تتواجد فيها، لا يتبادلن الحديث معها في طريق الجبل وأمام خزان الماء الذي يملأه تفضلًا مدير المخيم. يريد المتسلط القادم التصفية النفسية والجسدية لكل من يعترض أو يعوق خططه. ستكون راية خلال الأيام القادمة مخربة وسفيهة ومثيرة للشغب ومقوضة لاستقرار المخيم.

عادت راية من مشوارها الصباحي لتفريغ ما في داخلها في صباح أحد الأيام المملة، فتحت الحقيبة الكبيرة، وأخرجت ما فيها من عصائر ومأكولات مغلفة، لا تكفي سوى لعشرة أيام فقط. أعادت كل شيء بطريقة مرتبة إلى

جزء من الحقيبة عدا حصــة يومهما، اســتمتعت بهذه اللحظة كثيرًا، فلديها تسع ليالي قادمة لن تحتاج فيهن لطعام المخيم.

"سـلوى، من اليوم لكل واحدة منا ثلاث علب شـوكولاتة في اليوم وعلبة بسكويت وقنينة عصائر.."

(...)

".. حين تشعرين بالجوع أخبريني لأعطيك من حصتي."

(...)

"أيضًـــا لا ترمي بالأغلفة أمام الخيمة ســوف نحملهم إلى حمام العراء ونضعهم أسفل الصخور."

(...)

"احتفظي بالقناني الزجاجية.. سنحتاجها."

تناولت حصة الصباح من الغذاء، وهي تتعرق أسفل قيظ الصيف في الخيمة، تذكرت أنها لم تضع في الشنطة مزيل عرق. سمعت في هذه اللحظة الحائرة أقدامًا تتدافع بإيقاعات ســريعة، وأنفاس عالية وضــجيج كثيف. شــعرت بأجســاد تســقط على خيمتها وتتمايل بها. كأن حيوانات برية اجتاحت المكان. وجدت نفسها تحتضن سلوى في منتصف الخيمة، وتنتظر سقوطها الوشيك.

كان سكان الخيام قد غادرو جميعًا نحو البراح. بدا الأمر وكأن قذائف مدفعية سوف تزورهم بعد قليل. سارتا خلفهم إلى المكان الذي تجمعوا فيه كخلية نحل حول ناقلة بضائع، بدأت تزمر بصوتها المزعج وهم يرفعون البطائق الحمراء والخضراء نحو العمال.

من نافذة مقطورة القيادة تحدث رجل عبر مكروفون يدوي بتهديد جِّدي:

"سوف نعود من حيث أتينا إذا لم تبتعدوا عن الطريق وتنتظموا في صفوف."

تعود الناقلة إلى الخلف ببطء شديد. أذعن الجميع للتهديد فتراجعوا إلى الخلف. عاد مكبر الصوت بالارتفاع: الجميع في صفين.. صف اليسار لحاملي الكروت الخضراء وصف اليمين لحاملي الكروت الحمراء." انتظم الصفان، توقفت الناقلة. خرج رجلان من مقصورة القيادة، ورفعا سريعًا على هيكل الناقلة لوحة قماشية مكتوب عليها: "مشروع توزيع المساعدات الإنسانية."

وأسفلها: "تنفيذ: منظمة الإغاثة العاجلة."

باشر العمال في إنزال الغذاء من على القاطرة إلى الأرض، وضع فراغ بين السلال الغذائية المكونة من: القمح، والرز، والعدس، والسكر، وصفيحة زيت.. غطت السلال مساحة البراح.

وصـل مدير المخيم يحمل عصـا مهابة في يده، يطير الغبار من تحت أقدامه، خلفه مسلحان بأقدام حافية في وضع الاستعداد بالسلاح. هذا المشهد ليس غريبًا على الحياة السـابقة لسـكان المخيم، توقعت راية كما الآخرون بأنها لحظة التقاط الصـور لزعيم المخيم مع شـعب الخيام. التقطت صـور جانبية وأمامية، ارتقى المصـور أعلى الناقلة والتقط صـور علوية. انتصـف النهار على المصطفين أسفل قيظ الصيف في انتظار الحصول على سلالهم.

من آخر الصـفوف كانت راية تظلل وجهها بيدها، تنظر إلى ما يحدث في الأمام. وقف مدير المخيم يتمسـك بالعصـا التي غرسـها في الأرض، إلى جواره رجل بربطة عنق يشبك كلتا يديه أمامه كاللصوص الذين تقيد الشرطة أياديهم في الأفلام. بدأ التوزيع بالتناوب، كرت أحمر وكرت أخضـر، كانت طائرة الدرون تلتقط صـورًا لكل شـخص يسـتلم حصـة عائلته، تقترب منه كثيرًا حتى تبدو كطائر يحوم حول فريسته.

تتبرم امرأة تستقيم في الطابور جوار راية.

"من حقه هذا التباهي."

"من تقصدين؟"

"مدير المخيم.."

"لماذا يحق له؟"

"لأنه زوج ابنة رئيس منظمة الإغاثة العاجلة."

"ومن هو هذا الذي يرتدي ربطة عنق؟"

"ساري الكريم.."

اسم المنظمة واسم هذا الرجل ليس غريبًا على راية. عادت بها الذاكرة إلى المستشفى، إلى تلك اللحظة التي كانت جالسة على الكرسي العالي في الكافتيريا تتناول وجبتها وتشاهد الأخبار على شاشة تلفزيون أمامها.

تجاوزت النظام ومشت بين الصفين إلى حيث يتواجد مدير المخيم وعمو الدكان، على أصوات احتجاجات سكان الخيام.

"عودي إلى مكانكِ في الطابور."

"لن نسمح لكِ بتجاوزنا."

صرخ مدير المخيم عبر الميكرفون اليدوي: "عودي إلى مكانكِ ولا تخربي النظام."

استمرت راية حتى وصلت إلى الأمام.

"عمو الدكان.. أنا الوحيدة دون كرت الغذاء."

"من أنتِ؟"

"راية ابنة صقراوي.."

"هاا.. عائلة طيبة."

"لماذا ليس لديها كرت؟!" وجَّه عمو الدكان السؤال لمدير المخيم.

"مخربة.. مثيرة للشغب.. تعرقل سير النظام.. وتقلق سكينة المخيم."

فتح ساري الكريم يديه بحيرة العاجز نحو راية.

لم يعد سارقًا. صار لصًا الآن. غادرت راية الصفين نحو خيمتها والمشرط بين يديها يعكس شعاع الشمس. لفظ بعض من سكان المخيم كلماتهم نحو راية وهي تمر بجوارهم.

"النظام.. نظام."

"مدير المخيم لا يحب الظلم ويحترم القانون."

"لا أحد يسكت على حقه.."

"ستموتين جوعًا."

"افهموا، لا تملك بطاقة لتستلم حقها." قالت المرأة المتبرمة التي حدثتها سابقًا.

لاحقًا. وجدت عمو الدكان أمام خيمتها. أسقط من أسفل بدلته الرسمية سلة غذائية.

"كيف فعلت؟"

"سر مهنتي.. لا تسأليني هذا السؤال لمرة ثالثة."

"صرت الآن بمرتبة لص عمو الدكان."

".. عالق بينه وبين رتبتي السابقة."

يعمل اللصوص في مناصبهم الجديدة بسرية مهنتهم التي أوصلتهم إلى هذه الرتبة. لا بأس أن استخدموا مهاراتهم السابقة وأضافوا ارتداء الأطقم الرسمية في تعمية الناس عما يقومون به. حين أحرق عمو الدكان بطاقات سالم المسلم لم نكن نتصور أنه يحرق المرحلة السابقة، ليمد يده له في المرحلة القادمة.

٣٧

يرتفع دخان المواقد من ردهات وجوانب وأزقة المخيم، يحترق المكان برائحة شواء ليست لذيذة. كميات مختلطة من الرز والعدس تُحرك في ماء مغلي وسط قدور من علب الحليب المجفف الكبيرة. وفي علب صغيرة يحرك الأطفال غذاءً بِعيدان الأشجار، تبدو كعملية للتسلية أكثر مما هي لصنع طعام.

تسيل الدموع من وجنات الأمهات وعيونهن تغتسل بالدخان، يمسح الرجال على لحاهم الطويلة وهم يجلسون إلى عواميد الخيام في انتظار الطعام المسلوق غير المتبل. الملح أرخص الأشياء لكنه نادر في الخيام.

على المائدة يحتار النازح كيف يأكل، تمتد الأيادي بصعوبة لغرف ما جهزوه إلى الفم ومضغه ومن ثم بلعه. الطعام غير المتبل عقاب جماعي، بدونه ينسى الإنسان إن كان قد تناول طعامًا. يشعر وكأن جوفه لم يدخله شيء لأيام.

بعد الانتهاء من الأكل، يوضع في القدر نفسه كمية من الماء المغلي والسكر، لصنع عصائر الأطفال الساخنة. لا أحد يفهم لماذا السلة الغذائية تحتوي على سكر دون صديقه الشاي. هل هو لصنع الحلويات مثلًا! لابد للشاي أن يرافق السكر. والقمح الأوكراني لمن! ما الذي يمكننا فعله هنا ببذور

القمح غير المطحونة؟ ربما يعتقدون أنها للتسلية، لنلوك بذور القمح بأفواهنا. لكن لنفترض أن حبوب القمح جاءت مطحونة، هل يمكننا صنع الخبز في الخيام؟ يعتقد مانحو الأموال أن الصورة هي الشهادة الوحيدة لوصول المساعدات إلى مستحقيها، لكنهم لم يفكر ولو للحظة واحدة بكيفية وصولها للبطون. ربما الفكرة الأخيرة ضمن مسئوليات المنظمات المحلية. اللصوص وأصحاب المصالح يحجبون الشمس وبديهيات الأشياء عن الحياة، ويجلبون الجوع والموت والتشرد، هم غير مرئيين دائمًا لكنهم ينعكسون على الوجوه اليائسة والعيون الحزينة للنساء وشعور الرجال التي تطيل على رؤوسهم ووجوههم، يظهرون على الملابس الممزقة والأقدام الحافية والأجساد المبتورة وأطفال المخيمات.

تتحرك راية الآن في مساحة الجمل بين الخيام، يتوه المشرط بين يديها وهي تركل الأرض بحذائها الرياضي.

خرجت سلوى من الخيمة قالت لها:

"خلصت كميات الشكولاتة والعصائر."

"من الآن سنأكل كما يأكلون هنا."

خلال الأيام الماضية حددت هدفها: الانتقام، الانتقام لحسان الخالد، الانتقام لماريا حبيب، لعل سالم هو من قتلها. تَذكُّر الهدف ثلاث مرات كفيل بإعلانه داخليًا وتأكيد الرغبة. سالم المسلم دمر حياة القريبين والبعيدين، وهي تريد إيقاف هذا النزوح الطويل للأجيال.

ثلاثة أجيال عاشوا يحلمون بوطن، انتظروه كثيرًا حتى تهدأ الحرائق. اضطر جدها للذهاب إلى الحبشة، استنفد عمره هناك في بناء منزل في القرية وشراء آخر في عدن. ثم مات قبل أن يتحقق حلمه بوطن مستقر وقبل أن يفتخر بتعليم ابنه والاستمتاع بالحياة مع أحفاده. درس والدها في بلغاريا ثم تزوج والدتها هناك حيث كانا يدرسان الهندسة الزراعية والطب البشري. حين عادا وبدآ السعي وراء أحلامهما، دمرت الحرب منزلهما. قضيا عمرهما في الانتظار حتى تهدأ الحرائق، استثمرا الأمل في ابنة وحيدة، لكنهما ماتا في حرائق الوطن الأخيرة. لعلها كانت موتة أرحم مقارنة بموت الخالد وهو نائم على رصيف الشارع أمام منزله المنهوب في ليلة باردة، بعد أن خرج من السجن بأضلاع مكسرة وقضيب مبتور من منبته. هي لن تنتظر هدوء الحرائق، سوف تصنع حرائق صغيرة مضادة في حدود قدرتها.

٣٨

حين تنفذ من فتحة سنام الجمل أمام خيمة راية، ستعبر الزقاق الضيق بين الخيام المائلة. ولتجاوزه سوف تصطدم بأشخاص جالسين أو واقفين أو مستلقين داخل خيامهم. شبكت راية يديها خلف ظهرها ومضت تجتاز هذا المكان حتى وصلت إلى الخيمة الكبرى. صادفت الرجل الذي جاء بها إلى هنا يتحدث مع أخيه مدير المخيم على ضوء قناديل الألواح الشمسية التي تنير خارج الخيمة وداخلها. حين اقتربت منهما غيَّرا حديثهما.

"أنت من أتيت بهذه المشكلة يا أخي."

"ليست مشكلة إن فتحت عقلك.."

وصل ثلاثة أطفال من المخيم وذهبوا خلف العثماني..

"مع السلامة."

"سلِّم على عمي سالم يا أخي."

"أين ستذهب بالأطفال في هذا الوقت من الليل؟"

"هذا أمر لا يخصك."

"سلم لي على أمة الله إذن!"

"ماذا قلتِ؟! من أين تعرفينها؟"

"هذا أمر لا يخصك."

تجولت راية في المخيم رفقة بعض اللاجئين. مشت في دروب تغرقها أشعة شمس ملوثة. في قلب الشعاع تتحرك أشياء تشبه تلك التي تُرى في عدسة المختبرات الطبية.

مرت على المنظر اليومي البائس لسكان الخيام. تفترش الجدات تراب المخيم ويحتضنَّ العكاكيز، نساء يرتقن أجساد خيامهن، وجوه رجال بلحى غزاها البياض ووجوه منكمشة وأفواه فاغرة على الجفاف، أطفال نصفهم الأسفل عارٍ يلهون بما بين أفخاذهم. رياح خفيفة تجرف الرمال إلى وجوه الجميع. تنطفئ العيون ولا تخبوا روائح الأجساد.

توقفت أمام امرأة تصرخ بصوت يشج أذنيها: "أين ابني؟!"

أخرى:

"استيقظت وابني ليس مكانه... بحثت عنه في كل مكان ولم أجده!"

صوت امرأة ثالثة...

ورابعة...

قالت راية:

"مدير المخيم يسرق أطفالكم."

في الخيمة المقابلة لهن كان يجلس فتى يلف خرقًا بالية على ساقه، ومن بطنه يسيل دم على قميصه الملون. كان قد اختفى عن أنظار والدته قبل شهر ووجد في الليلة الماضية مرميًا بين الخيام.

جففت المرأة المنهارة دموعها بباطن يدها، خلفت مسحة تراب على وجنتيها منحتها ملامح جدية، وسرن جميعًا نحو الخيمة الكبرى. أبعد الحرس مشرط راية عن عنق مدير المخيم. فهجمت النساء المكلومات عليه، ألقينه أرضًا، وبركن عليه.

سُحبن إلى الخلف بواسطة نساء أخريات. نهض على الفور وهو يمسح التراب العالق على ملابسه بيده. أشار نحو راية التي تبتعد الآن.

"ستندمين."

٣٩

تساقطت أمطار غزيرة على المخيم استمرت لثلاثة أيام. اختفى كل سكان الخيام في خيامهم ينتظرون توقف المطر. منذ بضع أيام لم يصعد دُخان المواقد ولم يدخل إلى جوفهم سائل ساخن يزيل عنهم البرد قليلًا. غرقت الخيام المنصوبة في بعض الأماكن المنخفضة، فانتقل أصحابها إلى خيام أخرى ازدحمت بهم.

حُبست راية وسلوى داخل الخيمة، تنصتان لنقرات قطرات المطر الرتيبة على قماش الخيمة. تتثاءب راية وهي تضع يديها أسفل رأسها، تنظر في النقطة التي يرفع عندها العمود سقف الخيمة إلى الأعلى، لقد انْهَار عمود الوطن وبقي عمود خيمة هزيل مرشح للسقوط في أية لحظة. ثم ذهبت تعقد مقارنة حسية بين إيقاع قطرات المطر على السطوح والنوافذ، ووقعه على سطح الخيمة. الإيقاع على منازل حقيقية يأتي جميلًا وعذبًا تتآلف به الروح وتذهب معه إلى أبعد مغامرة روحية. بينما الإيقاع على الخيام، يأتي مملًا ورتيبًا. يمتص سطح الخيمة الارتطام ويصدر عنه صوت أشبه بضرب سوط. ومن مجموع الضربات المكتومة على الخيام يتشكل صوت يشبه الأنين.. ثم يبدأ السطح بنز قطرات مياه تقع على الأجساد المستسلمة لقوته.

وسط البرد تبحث الأيادي عن حبوب قمح أو أرز، يلوكونها لسد شيء من جوعهم. حين توقفت الأمطار كان قد مرَ الموعد المحدد لتوزيع السلال

الغذائية. أهمل السكان المياه الراكدة في المخيم ومضوا يسألون عن موعد مجيء الناقلة. نفدت الكمية السابقة في معظم الخيام. بينما راية جالسة في مساحة الجمل أمام خيمتها تحاول إيقاد حطب مبلل أسفل قِدر مستعار. تقدمت منها امرأة لم تنتبه لها لبعض الوقت؛ من أثر الدخان في عينيها. كان مدير المخيم قد أرسل عبرها عرض زواج لراية. فطردتها على الفور. عرفت الآن بشكل مؤكد أن العثماني حملها إلى هنا كهدية لأخيه، ولم يعد هذا الأمر في خانة الشك.

كانت راية تريد تنفيذ الخطة التي فكرت بها خلال الأيام السابقة بكشف فساد سلطة المخيم وإخراجها للعلن. كل ما في الأمر أنها تحتاج إلى هاتف ورصيد إنترنت ولوح شمسي صغير يضمن استمرار الطاقة. أخرجت النقود التي احتفظت بها في حقيبتها عندما كانت في الحي المهجور، وكلفت المهمة لمجموعة من اللاجئين.

حصلت على ما تريد، لكن شبكة الهاتف لا تتواجد في خيمتها، فسارت نحو الجبل، تتجاوز نباتات جافة وأحجار مدببة، ومنزلقات وعرة. جلست على السفح في مكان مناسب تطل به على مدينة الخيام.

كتبت في محرك البحث: "منظمة الإغاثة العاجلة"، لم يكن لها وجود فعلي في محرك البحث. ثم كتبت اسم المخيم الذي نطق به العثماني حينما أوصلها إلى هنا، لم يكن لهذا المخيم وجود على شبكة الانترنت.

كل يوم تلتقط راية صور من مأساة المخيم بشكل سري وتوثقها في فضاء التواصل الاجتماعي بالاسم الوهمي للمخيم. جنت سلطة المخيم، فتشت جميع الخيام للبحث عن هاتف أو كاميرا. بدأت حوادث المخيم بالتصاعد، خيام تحرق في الليل، وملثمين بعصى ينهالون بها على الأجساد ثم يتلاشون.

خففت راية من الصعود إلى الجبل. لكن السكان ربطوا بين وجودها وبين ما يحدث في المخيم. كان المخيم ينعم بالاستقرار قبل مجيئها، والمساعدات تنتظم في الموعد المحدد، فهي السبب الواضح أمامهم الآن.

بدلت خيمتها في الليلة التي سبقت احتراقها. في الصباح استيقظت في الخيمة الجديدة على تجمهر بعض من أبناء المخيم في مساحة الجمل. تقدم من خلفهم مدير المخيم.

"رأيتم العاهرة التي تنام في خيام اللاجئين."

لم تستطع الوصول إليه. كان محاطًا بالحراس وجمع من النازحين واللاجئين في مساحة ضيقة. استطاع الانسحاب بروح الانتصار الذي بدا على ملامحه.

أصبحت راية السبب الرئيسي لما آل إليه أوضاع الناس في المخيم. وبطردها سوف تحل كل مشاكل المخيم.

ظلت سلطة المخيم تستمتع في خيمتها الكبرى وهي ترى أن المشاغبة الوحيدة في المكان تحترق، وتلوك عرضها ألسنة البؤساء. تفشت الكوليرا

في المخيم. تساقطت الأجساد تحت ضرباته. غادر مدير المخيم الخيمة الكبيرة ونجا من العدوى. ثم تلاه بعض أبناء الخيام الذين ارتأوا النجاة بأنفسهم.

شكلت راية مع اللاجئين وما تبقى من النازحين فريقًا، يحفرون قنوات للمياه الراكدة، ويضرمون النار فيها بالأغصان وجذوع الأشجار. هاج الجوعى نحو الخيمة الكبرى وأخرجوا السلال الغذائية المخزنة فيه، ومجموعة من قناديل النفط، وخيمًا جديدة نصبت في أماكن الخيم المتهالكة.

بحرية كبيرة وثقت كل ما حدث. تفشت الصور على مواقع التواصل الاجتماعي. شكلت الجهات الأممية لجنة خبراء للنزول وتقصي الحقائق في المخيم المجهول. وضعت على رأس اللجنة الخبير المحلي ساري الكريم.

كانت راية تجلس على سفح الجبل تتابع الأخبار حين رأت ناقلة تتجه نحو المخيم بالغذاء والدواء. هرولت إلى الأسفل حتى وصلت إلى مساحة الخيام. أوقفها رجل غريب يعكز على قدم واحدة. أظهر لها صورة لعائلته التي يبحث عنها. تظاهرت بالنظر نحو الصورة، لكنها كانت تفكر بشيء آخر، فهي تعرف صعوبة هذه المساعدة. قدمت له بدلًا عن ذلك مساعدة أخرى. بحثت له عن خيمة مهجورة يمكن أن يرتاح فيها. وجدتها أمام خيمتها.

أشـارت له نحو خيمة قريبة أمامهما. حين التفتت إلى خلفها، كانت سـلوى تحتضن والدها ويبكيان.

انهارا على الأرض.

"أين أُمها؟"

لم تجب على سـؤاله لكنه فهم الأمر. أمسـك بابنته وغادرا الخيام. مضـت راية إلى الجهة الأخرى حيث ستستقر الناقلة في المكان الخالي.

وقفت وحيدة أمامها تنتظر خروج المسـئول الجديد من مقطورة السـائق. تسمرت في مكانها وهي تبحلق في عيون مدير المخيم وساري الكريم.

أخَّر الانقضـاض عليهما وصـول سـيارة أممية مصـفحة نزل منها منسـق الشـؤون الإنسـانية الأجنبي. ومن المدرعة العسـكرية المرافقة نزل سـالم المسـلم وجنود ملثمون خلفه. مشـت في المجموعة خلفهم، لم تحاول أن تتحاشى عيني أحد المسلحين الملثمين وهو يسير في ظلها وتارة يراقبها من بعيد، وتارة يؤخرها عن اللحاق بالمجموعة. أمام الخيمة الكبيرة توقف سالم لبرهة بينما اتجه المنسق الأجنبي إلى مسار آخر. اقتربت راية من باب الخيمة واعتلت طاولة ثم هوت بالمشـرط على عنق سـالم المسـلم. لكن الملثم الذي يراقبها اعترضـها بجسـده، فهوت به على الأرض وانغرز المشرط في كتفه.

أوقف سالم الأسلحة التي وجهت نحو راية بجملة واحدة: "لا.. ليس الآن." ثم غادرو نحو المسار الذي ذهب منه المنسق الأجنبي.

سحبت راية قناع الملثم الساقط على الأرض وضغطت به على كتفه بقوة. ثم نظرت إلى عينيه:

"حسان الخالد!"

"ماذا تفعل مع سالم المجرم؟!"

(...)

وهي مستمرة في الضغط على الكتف المجروحة، أتاها صوت محرك السيارة والمصفحة وهما تغادرون مع الناقلة.

اختفى الجميع: النازحون واللاجئون.

وبقيت وحيدة ينزف قدماها دمًا أحمرا في قلب مخيم خالٍ.. بينما تضغط بقوة وهلع على الجرح الذي أحدثته في كتف حسان قبل قليل.